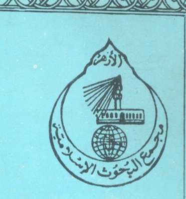


التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف
لجنة من العلماء
بإشراف
مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب السابع والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١ م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء
بإشراف
مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب السابع والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١ م

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٩١

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٩٠

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٦٧٧٨ — ١٩٨٩ — ٢٥٠٠٤

سورة الملك

مكية وآياتها ثلاثون آية

مقاصدها :

تتضمن هذه السورة تنزيه الله الذى فى قدرته الملك وهو على كل شىء قدير ، كما تصفه بأنه - سبحانه - خلق الموت والحياة ليختبرهم ويجزيهم على أعمالهم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وتصفه بأنه خلق سبع سموات طباقاً لاعيب فيها ، وأنه زين السماء الأولى بمصابيح وهى النجوم ، وتوعدت السورة الذين كفروا بربهم بعذاب جهنم ، وتصف حالهم فيها واعترافهم بخطئهم فى الكفر ، وتعقب ذلك ببيان حسن المصير للمتقين ، وأنه - تعالى - يعلم أعمال عباده خفية كانت أو علنية ، وأنه ذلل الأرض ومدها لكى تتيسر لهم الأرزاق بسيرهم فيها طلباً للرزق ، وحذرت الكفار من أن يخسف الله بهم الأرض ، أو يرسل عليهم ريحاً ترميهم بالحصباء ، ووجهت نظرهم إلى أنه - تعالى - سهل للطير أسباب الطيران فى الجو ، ولولا ذلك ما استطاعت ، وأنه تعالى لو أمسك رزقه عن الناس فلا رازق لهم سواه ، وبينت أنه - سبحانه - خلقهم ومنَّ عليهم بالسمع والأبصار والقلوب ، وأنه خلقهم فى الأرض وإليه البعث والنشور بعد الموت ، وبينت أن الكفار يسألون رسولهم عن موعد هذا البعث وأنه - تعالى - أمر رسوله بإبلاغهم أن علم ذلك عند الله وحده ، وذكرت أنه لو أهلك النبىَّ ومن معه كما تمنى الكفار ، أو رحمهم بالإبقاء فمن الذى يجير الكافرين من عذاب أليم ينتظرهم يوم القيامة لكفرهم ، وبينت أنه - سبحانه - هو الرحمن لمن آمن به ، وهو الذى يجيرهم من عذاب أليم ، وأن الماء لو أذهبه الله من الآبار فمن الذى يأتيهم بماء معين سواه ، ومن كان هذا شأنه فى ملكه فلا بد من الإيمان به .

صلة هذه السورة بما قبلها :

لما ضرب الله مثلًا للكفار فى آخر السورة التى قبلها بامرأة نوحَ وامرأة لوط الكافرتين ، وأنه لم يشفع لهما كونهما زوجتين لرسولين ، وضرب مثلا للمؤمنين بآسية امرأة فرعون ،

ومريم ابنة عمران ، ولم يضر الأُولى كفر زوجها ، كما لم يضر الثانية كون أكثر قومها كفاراً ، افتتح هذه السورة بما يدل على تصرفه الكامل فى ملكه فقال ـ سبحانه ـ : (تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ) إلى غير ذلك من الأُمور المشتركة بينهما .

اسـماء السورة وفضلها :

جاء فى تعدد أسمائها أحاديث يؤخذ منها أنها تسمى « تبارك » و « المانعة » و « المنجية » و « المجادِلة » كما تسمى سورة « الملك » ، وقد ذكر هذه الأَحاديث الآلوسى فى مستهل كلامه عنها ، ولم نذكرها تجنباً للإطالة .

وقد جاء فى فضلها حديث أخرجه الإمام أحمد وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، والحاكم وصححه ، وغيرهم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سورة من كتاب الله ماهى إلا ثلاثون آية ، شفعت لرجل حتى غُفِر له : (تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ) » .

وفى حديث رواه الطبرانى ، وابن مردويه بسند جيد عن ابن مسعود « مَنْ قرأها فى ليلة فقد أكثر وأطيب » . . إلى غير ذلك من الأحاديث .

بسم الله الرحمن الرحيم

(تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾)

المفـــردات :

(تَبَارَكَ) : تعالى وتقدس .

(بِيَدِهِ الْمُلْكُ) : تحت قدرته وطوع أمره ملك السمٰوات والأرض .

(لِيَبْلُوَكُمْ) : ليختبركم .

(سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ طِبَاقاً) : بعضها فوق بعض ، جمع طبق أو طبقة .

(فُطُورٍ) : شقوق وخروق .

(كَرَّتَيْنِ) أى : رجعة بعد أخرى ، فالمراد من الرجعتين التكرار بكثرة .

(خَاسِئًا) : صاغرًا متباعدًا عن أن يرى شيئاً من ذلك .

(وَهُوَ حَسِيرٌ) : حسير كليل حاسر ، وهو من الحسور بمعنى الإعياء والتعب .

التفسير

١ - (تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

أى : تعالى الله الذى تحت قدرته وطوع مشيئته ملك السموات والأرض ، يدبره ويزيد فيه بحكمته ، وتعاظم عن كل ما سواه فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وتقدس وتنزه عن الشريك والنظر فى إبداع هذا الملك العظيم ، فكل ما سوى الله مخلوق له - جل وعلا - ، وهو على كل شىء لم يوجد من الممكنات عظيم القدرة على إيجاده وتحقيقه[1] .

٢ - (الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) :

هذه الآية استئناف لتفصيل بعض أحكام الملك وآثار القدرة ، وبيان ابتنائهما على قوانين الحِكَم واستتباعهما لغايات جليلة .

والموصول هنا (الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) بدل من الموصول السابق (الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ) ، وصلته كصلته فى الشهادة بتعاليه - عز وجل - .

وجوز الطبرسى كونه خبرًا لمبتدأ محذوف ، أى : هو الذى .

وبين الله - تعالى - الحكمة فى خلقهما بقوله : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) أى : ليعاملكم معاملة المختبر ليظهر أيكم أصوب عملًا وأخلصه ، فيجازيكم بمراتب مختلفة من الجزاء حسب تفاوت أعمالكم ، وهو عليم أزلا بما سوف يحصل منكم باختياركم : والمراد من العمل ما يشمل عمل القلب والجوارح ، ولذا قال ﷺ فى الآية : (أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) وأورعكم عن محارم الله - تعالى - وأسرع فى طاعة الله - عز وجل - .

وعلق عليه الآلوسى بقوله : أى : أيكم أتم فهما لما يصدر عن جناب الله - تعالى - وأكمل لما يؤخذ من خطابه - سبحانه - .

وأجيب بأن المقصد الأصلى للابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين مع تحقيق أصل الإيمان والطاعة فى الباقين أيضاً - ، لكمال تعاضد الموجبات له ، وأما العمل القبيح فبِمعْزل

---

(١) هكذا فسر صاحب الكشاف جملة: (وهو على كل شىء قدير) لتتضمن معنى جديدا غير ما تضمنته صدر الآية .

عن الاندماج تحت الوقوع ، فضلاً عن الانتظام فى سلك الغاية أو الغرض - عند من يراه لأفعال الله - عز وجل - وإنما هو عمل يصدر عن عامله لسوء اختياره من غير مصحح له ، وفيه من الترغيب فى الترقى إلى معارج إلى العلوم ومدارك الطاعات مالا يخفى .

انتهى من الآلوسى بتصرف يسير .

وختم الله الآية بقوله : (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) :

أى : الغالب الذى لا يعجزه عقاب من أساء ، الغفور لمن أساء منهم أو تاب .

٣ - (الَّذِى[١] خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقاً مَّاتَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ) :

كل ما علاك سماء ، من السمو بمعنى الرفعة ، ولهذا يطلق لفظ السماء على الغلاف الجوى الأزرق الذى يعلو الأرض ، ويحيط بها ، ويطلق أيضاً على السحب الممطرة أو غيرها ، بل يطلق على المطر نفسه مجازًا ، لأنه نزل من السماء بمعنى السحاب ، يقول بعض العرب : ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم ، أى نطأ المطر الذى فوق الأرض ، وكذلك يطلق على النجوم والكواكب لارتفاعها .

والمراد من السموات السبع غير هذا كله فهى من الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، وهى التى عرج بالنبى ﷺ إليها .

ولا سبيل إلى أن يراد منها النجوم والكواكب ، لأنها زينة للسماء الدنيا - أى : الأولى - لقوله تعالى : (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)[٢] وقوله : (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)[٣] .

ولا شك أن زينة الشىء غير هذا الشىء ، فمثلا زينة الفتاة غير الفتاة نفسها ، والله - تعالى - يقول فى سورة الكهف الآية ٧ : (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا) فالأشجار والزروع والجبال ونحوها زينة للأرض وليست هى الأرض .

---

(١) لفظ (الذى) نعت للعزيز الغفور ، أو بيان ، أو بدل ، ولفظ (طباقا) صفة لسبع .

(٢) من الآية الخامسة لهذه السورة . (٣) الآية السادسة من سورة الصافات .

كما أن النجوم والجبال ليست سبعاً ، لا فى نفسها ولا فى المجرات التى تتبعها ، فهى ملايين الملايين التى لايحصيها إلّا الله ــ تعالى ــ ، كما أن عدد المجرات وعدد طبقاتها لايحصيه إلّا الله ــ تعالى ــ وليست سبعاً .

وهذه الآية من أعظم الآيات على تعاليه ــ سبحانه ــ فوق كل شىء .

والمراد من التفاوت فى قوله ــ سبحانه ــ : (مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ)[1] المراد منه الاختلاف وعدم التناسب ، وفسره السُّدِّى بالعيب ، وإليه يرجع قول من قال : أى : من تَفَاوُتٍ يورث نقصًا ، والفطور هى الشقوق ، جمع فَطْرٍ بمعنى شقٍّ يقال : فطره فانفطر أى : شقه فانشق ، والمراد نفى الخلل والعيب فى خلقها ، والخطاب فى الآية لكل من يصلح له من المكلفين .

والمعنى الإجمالى للآية : الذى خلق سبع سموات بعضها فوق بعض طباقاً ، ما ترى فيها أيها الناظر من عيب أو اختلاف فى درجات الإتقان والإبداع ، فإن كنت فى شك من ذلك فَردِّدْ طرفكَ فى نواحيها وقلبه فى أرجائها فانظر هل ترى فى خلق الرحمن من عيوب ؟ .

والتعبير بلفظ (مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ) بدلاً من أن يقال : مَا تَرَى فِى خَلْقِ القادر ، للإيذان بأنه ــ تعالى ــ خلقها بقدرته رحمة بعباده .

٤ ــ (ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) :

أى : ثم ردِّد البصر وقلبه فى أرجاء السماء ، يرجع إليك بصرك بعدهما بالصغار وعدم إصابة الغرض من رؤية خلل أو عيب فيها ، كأنما طردته السماءُ عن أن يعود إلى البحث عن عيب فيها ، من خسأ الكلبَ أى : طرده .

وفسر بعض اللغويين لفظ (خَاسِئاً) بـ « متحيرًا » .

---

(١) هذه الجملة نعت ثان للعزيز الغفور .

وليس المقصود من الكرتين المرتين فقط ، بل المراد منه كثرة التكرير ، أى : رجعات كثيرة بعضها فى إثر بعض ، كما قالوا فى لبيك وسعديك : أى إجابات كثيرة لك يا الله لدعوتك إيانا للحج إلى بيتك المحرم ، ومن تفسير المثنى بالكثير قول الشاعر :

لو عُدَّ قَبرٌ وقبرٌ كان أكرمَهُم بيتاً وأبعدهم عن منزل الذَّام

لأنه يريد : عُدَّت قبور كثيرة .

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾)

المفـردات :

(السَّمَآءَ الدُّنْيَا) : السماء القربى منكم وهى الأُولى .

(بِمَصَابِيحَ) : جمع مصباح وهو السراج ، والمراد منها النجوم ، سميت بذلك لإضاءتها .

(وَجَعَلْنَاها رُجُومًا) : رجوما جمع رجْم ، وهو مصدر سمى به مايرجم به ، أى : وجعلنا شهبها التى هى مصدرها .

(وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) : أى : وأعددنا للشياطين أشد الحريق ، يقال : سعرت النار فهى مسعورة وسعيرة أى : أوقدتها فهى موقدة .

التفسير

٥ - (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) :

دلت الآية السابقة على أن هذه المصابيح زينة للسماء الدنيا وليست هى السماء الدنيا كما تقدم بيانه .

وكلها تدور بقدرة الله فى الفضاء على وجه مخصوص تقتضيه الحكمة ، ومجاريها فيه هى أفلاكها ، وقد ارتبط بعضها ببعض برباط الجاذبية ، ولكل منها حركات حول نفسها وحركات غير ذلك ، وهى متفاوتة قرباً وبعدًا تفاوتاً لا حد له ، وإن منها مالا يصل شعاعه إلينا إلا بعد عدة سنين ، فى حين أن شعاع شمسنا يصل إلينا فى ثمانِ دقائق وثلاث عشرة ثانية ، مع أن بيننا وبينها أربعة وثلاثين مليوناً من الفراسخ[١] فما أعظم قدرة الله وحكمته فى إبداع هذا الكون العظيم .

وجاء فى الآية أن الله تعالى جعل هذه المصابيح رجومًا للشياطين ، والرجوم جمع رجم وهو مصدر سمى به ما يرجم به - كما تقدم فى بيان المفردات - والمقصود أنها مصدر رجم الشياطين ، للحيلولة بينهم وبين استراق السمع من الملائكة الذين حول الأرض ، وهم يتحدثون فى بعض أُمور الغيب التى وكلت إليهم ، ولكن هذه المصابيح لاتترك مدارها ، فهى باقية فيه حتى تنفطر السماء وتنتثر الكواكب ، وتبدل الأرض غير الأرض ، والسموات غير السموات ، وفى كون الرجم بأجزاء صغيرة جدًّا من تلك الكواكب وتسمى شهباً يقول الله - تعالى - فى سورة الصافات : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ »[٢] وفى سورة الجن : « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا

---

(١) هذه المعلومات عزاها الآلوسى لعلماء الهيئة وقد نقلناها عنه . بتصرف يسير .
(٢) الآيات من ٦ - ١٠ .

مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا »[١] . والمقصود من السماء التى كانوا يقصدونها الجو الذى يعلو الأرض ، فإنه يسمى سماء لغة ، لِسُمُوِّهِ ، أى : لارتفاعه .

وقد عرفنا من هاتين الآيتين وغيرهما من الأحاديث أن الجن كانوا يسترقون السمع قبل نبوة محمد ﷺ من الملائكة فى جو الأرض ، وينقلون ما يسمعون من الغيب إلى كهان الأصنام من أجواف هذه الأصنام ، فيستغله الكهان ويضيفون إليه ما شاءوا من الأكاذيب تقوية لزعامتهم الدينية .

وقد دلت الآيتان على أن السماء - أى : الجو الذى حول الأرض - ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا وأن من يستمع الآن يجد له شهاباً يرصده فيقتله ، وذلك بعد بعثة النبى ﷺ حتى يسلم الوحى من أراجيف الشياطين ، كما دل عليه قوله تعالى : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا »[٢] وكما دلت عليه السنة .

وهذه الظاهرة التى وجدوها فى حراسة السماء جعلتهم يبحثون عن سببها حتى سمعوا النبى ﷺ يقرأ القرآن ، ويدعو إلى عبادة الله - تعالى - وحده فآمن منهم من آمن ، وفى ذلك يقول الله - تعالى - حكاية عن هؤلاء الجن : « وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا * وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا »[٣] .

ونزول الشهب المضيئة المحرقة ظاهرة كونية قديمة ناشئة عن انفصال أجزاء صغيرة من هذه الكواكب وجذب الأرض لها فتشتعل من سرعة وقوة احتكاكها بالهواء ، والله - تعالى -

---

(١) سورة الجن الآيتان ٨ ، ٩ .

(٢) سورة الجن من الآية ٢٦ إلى آخر السورة .

(٣) سورة الجن الآيات من ١٣ - ١٥ .

هو الذى يعلم لماذا كانت تنزل قبل البعثة المحمدية ويعلم مختلف مصادرها ، وقيل فى معنى الآية : وجعلناها ظنوناً ورجوماً لشياطين الإنس وهم المنجمون المعتقدون تأثير النجوم فى السعادة والشقاوة ونحوهما ، ولكن الآلوسى رفض هذا الرأى ، ونحن كذلك نرفضه لأنه مخالف للنصوص الأخرى التى مرّ ذكرها .

وقد ذكر القرطبى ردًّا على ذلك قول محمد بن كعب : والله مالأحد من أهل الأرض فى السماء نجم ، ولكنهم يتخذون الكهانة سبيلا ، ويتخذون النجوم عِلَّة ، ونقل أيضاً عن قتادة تعليقاً على الآية قوله : خلق الله النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها فى البر والبحر والأوقات ، فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به وتعدى وظلم .

وتعقيباً على ما قاله قتادة نقول : إن هذه الأمور الثلاثة مأخوذة من نصوص فى القرآن الكريم ، ولكنها لا تمنع أن تكون لها غايات أعظم غير هذه الأمور الثلاثة ، ولكن الله - تعالى - لم يصرح بها لأنها من شئون الغيب الذى استأثر الله بالعلم به لأن البشر ليسوا بحاجة إلى علمها ، ولأنها فوق مستوى عقولهم .

والمعنى الإجمالى للآية : ولقد زينا السماء الأولى بأجرام شبه المصابيح فى إضاءتها فتخفف ظلام الليل ، وجعلنا المصابيح مصادر للشهب التى يرجم بها الشياطين الذين يحاولون استماع الغيب من الملائكة الذين يوجدون فى سماء هى [illegible] الأرض إذ لا قدرة لهم على الوصول إلى أى كوكب من كواكبها ، فضلا عن استحالة وصولهم إلى السماء نفسها . وأعْددْنا لهؤلاء الشياطين ولأمثالهم فى الكفر عذاب النار المشتعلة فى الآخرة بعد الإحراق فى الدنيا لمسترق السمع منهم بالشهب ، فإن قيل : إن الشياطين خلقوا من النار فكيف يعذبون بها ؟ قلنا : إن النار هى مادة خلقهم ، ولكنهم تحولوا إلى أجسام أخرى قابلة للاحتراق بها ، كما تحول بنو آدم من الطين إلى أجسام خالية من الطين .

٦ ، ٧ - (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ) :

أى : وللكافرين بربهم من الإنس عذاب جهنم مثل ما للجن من عذاب ، وبئس المآل والمرجع لكليهما جهنم ، إذا طرح فيها هؤلاء الكافرون ، سمعوا لها وهى تغلى وتفور - سمعوا لها - صوتاً منكرًا يشبه فى فظاعته ونكره صوت الحمير .

وكما يعذب الكافرون بالنار يعذب عصاة المؤمنين بها ، كما تدل عليه النصوص الواردة بشأنهم فى آيات أخرى ، فلا حُجّة للمرجئة فى الاستدلال بالآية الأولى على أن التعذيب بالنار خاص بالكفرة دون عصاة المؤمنين .

(تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾)

المفـــردات :

(تَمَيَّزُ[1] مِنَ الْغَيْظِ) : تتقطع وينفصل بعضها عن بعض من شدة الغيظ على أعداء الله ، وفى هذه الجملة استعارة تصريحية أومكنية تخييلية ، وقيل : إنه حقيقة ، وذلك بأن يخلق الله فيها إدراكاً فتغتاظ .

(فَوْجٌ) : جماعة من الكفار ، (خَزَنَتُهَا) : حراسها من الملائكة .

(نَذِيرٌ) : رسول ينذركم .

(بَلَى قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ) : نعم قد جاءنا نبى ينذرنا سوء عاقبة الكفر .

(فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ) : فبعدًا لهم عن رحمة الله .

---

(١) أصله تتميز فحذفت التاء الأولى تخفيفا وهى تاء المضارعة .

التفسير

٨ ، ٩ ـ (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ) :

استئناف لبيان أحوال أهل النَّار بعد بيان حال النَّار نفسها .

والمعنى : تكاد جهنم تتقطع من شدة غضبها على الكفار ، كلما أُلقى فى النَّار جماعة منهم سأَلهم حراسها ـ وهم مالك وأَعوانه من الملائكةِ ـ سأَلوهم ـ موبخين قائلين : أَلم يأْتكم رسول يتلو عليكم آيات الله ، وينذركم لقاءَ يومكم هذا ؟ أَجابوا معترفين قائلين : نعم قد جاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا فيما جاءَنَا به من الآيات : ما أَنزل الله على بشر من شىءٍ وكما قلنا لهؤُلاءِ الرسل : ما أَنتم فى ادعاءِ رسالتكم عن الله إلا فى ضلالٍ وبعد كبير عن الحق والصواب ، وجوز الزمخشرى أَن يكون هذا من كلام خزنة النَّار للكفار .

١٠ ، ١١ ـ (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ) :

هذا اعتراف آخر من أَهل النَّار ، وكأَن خزنة النَّار قالوا لهم : أَلم تسمعوا آيات ربكم وتعقلوها ؟ فقالوا معترفين : لوكنا نسمع كلام الرسل سماع فهم وتدبر أَو نعقله ، ما كنا فى أَصحاب النار ، أَى : فى عدادهم ومن جملتهم ، فكلام الرسل كان أَولى بتصديقنا لكونه جارياً على سُنَّة الحجة ، ومبنياً على البرهان ، فكان هذا اعترافاً من الكفار بذنبهم فى الإِعراض عن الحق المبين ، فبُعْدًا لهم عن رحمة الله .

(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) : عليم بما انطوت عليه الصدور من الخير والشر .

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ) : ألا يعلم الله مَن خلقه ذاتاً وأحوالاً .

(وَهُوَ اللَّطِيفُ) : العالم بالخفيات .

(الْخَبِيرُ) : العالم بما يكون قبل أن يكون .

التفسير

١٢ - (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) :

بعد أن ذكرت الآيات السابقة أحوال أهل النَّار من الكفرة ، جاءت هذه الآية لتبشر المتقين بأن لهم فى الآخرة مغفرة وأجرًا كبيرًا .

والمعنى : إن الذين يخافون عذاب ربهم غائباً عنهم أو غائبين عنه لأنه مستقبل وغيب لاسبيل إلى رؤيته ، أو غائبين عن أعين النَّاس غير مرائين بخشيتهم لربهم ، أو يخشونه بما خفى منهم وهو قلوبهم ، لهم مغفرة عظيمة لذنوبهم ، وثواب كبير لاحد لكبره .

١٣ ، ١٤ - (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) :

الخطاب هنا لجميع عباد الله لتعريفهم سعة علمه - تعالى - من غير حدود ، وأنه لافرق عنده - سبحانه - بين السر والجهر ، فهما عنده على سواء .

ومعنى الآيتين : وأسروا ياعباد الله قولكم واجعلوه خفيًا أو اجهروا به وأعلنوه فإن الله تعالى بكليهما عليم ؛ فهو - سبحانه - واسع العلم بمضمرات جميع الخلائق وأسرارهم المستكنة فى صدورهم لا تفارقها ، فكيف تخفى عليه أعمالكم وأقوالكم التى يجازيكم عليها .

ألا يعلم ذلك من أوجد بحكمته جميع الأشياء التى هى من جملتها ، والحال أنه تعالى هو العالم بخفايا الأمور ، الخبير بما يستجد منها .

(هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(ذَلُولًا) : سهلة تستقرون عليها ، والذلول : المنقاد الذى يذل ويخضع لك ، والمصدر الذُّل وهو اللين والانقياد .

(فِى مَنَاكِبِهَا) : فى جبالها كما قاله ابن عباس ، أَوطرقها وفجاجها كما قاله الحسن ، قال القرطبى : وأصل المنكب الجانب ، ومنه منكب الرجل ، والريح النكباءُ ، وتنكب فلان عن فلان - أى : اجتنبه - والأَمر بالمشى فيها للإرشاد والطلب .

التفسير

١٥ - (هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) :

والمراد من هذه الآية - على تفسير ابن عباس للمناكب - أَنه تعالى جعل الأَرض كلها سهلة السلوك لطلب الرزق سهولًا وجبالا .

والمعنى عليه : هو الله وحده الذى جعل الأَرض حين خلقها سهلة منقادة للإِنسان فى إِقامته وفى مشيه لطلب الرزق وسواه من الأَغراض ، فلا يمتنع عليه شىء فيها حتى جبالها ، فقد أَوجد فيها مسالك للمشى فيها ، فامشوا فى مناكبها وجبالها ، وكلوا من رزقه بسعيكم إِليه فى إِقامتكم وفى أَسفاركم ، وإِليه تعالى رجوعكم بعد بعثكم فبالغوا فى شكر نعمه التى منها تذليل الأَرض وتمكينكم منها وبث الرزق فيها ، ليحسن ثوابكم على شكركم ، وتفسير الآية على رأى الحسن : فامشوا فى طرقها وفجاجها ... إِلخ .

(ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ) : يهبطها بكم إلى أسفل مما جاورَها .

(تَمُورُ) : ترتج وتهتز اهتزازًا شديدًا ، وأصل المور : التردد فى المجىء والذهاب .

(حَاصِباً) : ريحاً تحمل الحصباء تقذفون بها .

(نَكِيرِ) : إنكارى عليهم بإنزال العذاب .

التفسير

١٦ - (ءَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ) :

الخطاب هنا لأهل مكة ، فالسورة مكية ، وهم الذين كانوا يحاربون الإسلام ، والاستفهام توبيخى يقصد به النهى ، كأنه قيل لهم : لا تأمنوا عقاب من فى السماء .

وظاهر الآية يدل على أنه تعالى فى السماء ، مع أنه سبحانه موجود قبل خلقها ، وللعلماء فى هذا وأمثاله مذهبان : أحدهما (مذهب السلف) وهم يسلمون بدلالة النص[١] ، وعليه أئمة السلف ، والآية عندهم من المتشابه ، وفيه يقول ﷺ : « آمنوا بمتشابهه » ولم يقل أوّلوه ، فهم مؤمنون بأنه عز وجل فى السماء على المعنى الذى أراده الله سبحانه مع كمال

(١) مع تنزيهه عن مشابهة الحوادث .

التنزيه ، أسند البيهقي بسند صحيح عن أحمد بن أبي الحوارى عن سفيان بن عيينة : كل ماوصف الله تعالى به نفسه فى كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه.

وهذه طريقة الشافعي وأحمدبن حنبل ، ويقول الآلوسي : إن هذا هو رأى العصر الثالث ، وهم فقهاءُ الأمصار ، كالثورى والأوزاعىومالك والليث ومن عاصرهم .. إلخ .

(المذهب الثانى) مذهب الخلف ، وهم يؤولون فيقولون : من فى السماء أمره وقضاؤه فالسماء مصدر أوامره إلى ملائكته ، ومنها يصدر قضاؤه ، فكأنه قيل : أأمنتم من ملكوته ومصدر أحكامه فى السماء ، والذى دفعهم إلى التأويل هو تنزيهه سبحانه عن المكان .

ومعنى الآية إجمالاً : هل أمنتم ياكفار مكة مَنْ عزه ومصدر قضائه فى السماء أن يخسف بكم الأرض ويهبطها وأنتم فوقها لتهلكوا فى جوفها ، فإذا هى حين الخسف ترتج وتهتز اهتزازًا شديدًا .

١٧ - (أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) :

بل أأمنتم مَنْ ملكوته فى السماء أن يرسل عليكم ريحًا تحصبكم بالحجارة كقوم لوط ، فستعلمون ما حال إنذارى وقدرتى على إيقاع العذاب بكم عند مشاهدتكم للمنذر به ، ولكن لاينفعكم العلم حينئذ ، وقد نجاهم الله من هذا والذى قبله بإيمانهم جميعاً فى السنة الثامنة من الهجرة .

١٨ - (وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ [١]) :

ولقد كذب الذين من قبل كفار مكة مثل قوم نوح وعاد ، فكيف كان إنكارى عليهم بإنزال العذاب بهم؟! أى : كان فى غاية الهول والفظاعة ، وفى الكلام من المبالغة فى تسلية رسول الله ﷺ وتشديد التهديد لقومه ما لا يخفى .

---

(١) الاستفهام فى (كيف) للتهويل .

(أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(صَآفَّاتٍ) : باسطات أَجنحتهن .

(وَيَقْبِضْنَ) : ويضممنها إِلى جنوبهن .

(مَا يُمْسِكُهُنَّ) : ما يحفظهن من الوقوع .

التفسير

١٩ - (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَآفَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَـٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) :

أَغفلت قريش التى عبدت الأَصنام ، وتركت عبادة القادر الرحمن - أَغفلت ولم تنظر إِلى الطير فوقهم باسطات أَجنحتهن صافات ريشهن ويضممنها[1] إِلى جنوبهن للاستظهار بهذا القبض على التحرك ، ما يحفظهن من الوقوع عند البسط والقبض إِلا الله الواسع الرحمة حيث خلقهن على أَشكال وخصائص ، وأَلهمهن حركات مكَّنتْهنَّ من السباحة فى الهواءِ ، إِنه تعالى بكل شىءٍ دقيق العلم ، فيعلم سبحانه كيفية إِبداع مخلوقاته حتى تؤدى وظائفها التى خلقت لها ، وفى هذا المعنى يقول موسى لفرعون وقد سأَله : (فَمَن رَّبُّكُمَا يَامُوسَى) يقول له : (رَبُّنَا الَّذِىٓ أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) كما حكاه الله تعالى فى سورة (طه) .

ولو شاءَ الله أَن يسقطهن على الأَرض ، لعطل أَجنحتهن فيسقطهن فإِن الأَرض تجذب

---

(١) مرة بعد أخرى .

ما فوقها إليها ، ولو شاء أن يبقيهن سابحات فى الجو بدون أجنحة لفعل ومنع الأرض من جذبها ، كما منع النار من إحراق إبراهيم - عليه السلام - ، ولكنه تعالى علمنا ربط المسببات بأسبابها كما يفعل الله بمصنوعاته .

(أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾)

المفـردات :

(جُندٌ) : حزب ومنعة ، ولفظه مفرد ومعناه جمع ، فيصح عود الضمير عليه مفردًا باعتبار لفظه كما فى الآية كما يصح عوده عليه جمعاً[1] .

(يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ) : من غير الرحمن .

(إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ) : ما الكافرون إلّا فى خداع وضلال فاحش .

(إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ) : إن حبسه عنكم .

(لَجُّوا) : تمادوا وأصروا .

(عُتُوٍّ) : طغيان وعناد .

(نُفُورٍ) : شراد عن الحق وشدة بعد عنه .

(مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ) : منكسًا رأسه لا ينظر أمامه ولا يمينه ولا شماله .

(سَوِيًّا) : معتدلا .

---

(١) كأن يقال فى غير القرآن : جند لكم ينصرونكم .

التفسير

٢٠ - (أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ) :

هذه الآية تبكيت لقريش على عبادتهم مَن لايقدر على نصرهم إن حاربهم غيرهم ، و (أم) فى قوله (أم من) بمعنى بل ، وذلك للانتقال من توبيخهم على ترك التأمل فيما يشاهدونه من أحوال الطير المنبئة عن عجيب آثار قدرته - عز وجل - إلى التبكيت بما ذكر ، والانتقال من الغيبة إلى الخطاب للتشديد فى ذلك .

والمعنى : بل من هذا الحقير الذى - هو فى زعمكم - ينصركم متجاوزًا نصر الرحمن ؟! ما الكافرون فى زعمهم أنهم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتهم ، لابحفظه تعالى وحده لاشريك له - ما الكافرون فى زعمهم هذا - إلا فى غرور وخداع فاحش من جهة الشيطان ، وليس لهم من نصيب فى الحق فيما يزعمون .

٢١ - (أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) :

بل من هذا الرازق المزعوم الذى يرزقكم إن حبس الله رزقه عنكم ؟! إن هؤلاء الكافرين لم يتأثروا بآيات الله الَّذِى لا يرزقهم سواه ، بل تمادوا فى عناد وشراد عن الحق .

٢٢ - (أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

هذا مثل ضرب للمؤمن والكافر فى الدنيا توضيحاً لحاليهما ، والفاءُ فى قوله : « أَفَمَنْ » لترتيب ما بعدها على ما قبلها والهمزة للإنكار : والمعنى : ليس الكافر والمؤمن متساويين فى حاليهما فى الدنيا ، أهما متساويان فيها ؟ ليس الأمر كذلك ؛ فمن يمشى منكساً رأسه لاينظر أمامه ولا يمينه ولا شماله لا يأمن من العثار والانكباب على وجهه فهو ليس كالرجل الذى يمشى سويًّا معتدلا ناظرًا ما بين يديه وعن يمينه وعن شماله ، فإنه يأمن العثار ، وقال قتادة : هو الكافر أكب على معاصى الله فى الدنيا فحشره الله يوم القيامة على وجهه .

(قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(الْأَفْئِدَةَ) : القلوب .

(ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ) : خلقكم ونشركم فيها .

التفسير

٢٣ ، ٢٤ - (قُلْ هُوَ الَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ، قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) :

قل لهم أيها الرسول : هو الله الذى أنشأكم وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأصوات ، والبصر لتنظروا به المرئيات ، والقلوب لتعقلوا وتفهموا بها الأصوات والمرئيات فهلا استعملتموها وانتفعتم بها فى إدراك الآيات الدالة على صاحب تلك النعم ؟! إنكم تشكرون الله على ذلك شكرًا قليلًا مع اعترافكم بأنه تعالى هو الذى خلقها لكم .

وقيل المعنى : لا تشكرون هذه النعم أبدًا كقولهم : قلما أفعل كذا ، أى : لا أفعله ، قل لهم أيها الرسول : الله هو الذى خلقكم فى الأرض ونشركم فيها وإليه تحشرون بعد البعث للجزاء لا إلى غيره ، فلماذا لا تعتبرون ؟

(وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾)

المفـردات :

(مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ) : فى أى وقت يتحقق الوعد بالحشر .

(نَذِيرٌ مُّبِينٌ) : منذر ومخوف لكم من سوء العاقبة واضح الإنذار ، من أبان بمعنى أوضَحَ .

(زُلْفَةً) : قريبًا .

(سِيٓئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) : أصابها السوء بأن علتها الكآبة والذلة .

(تَدَّعُونَ) : تتمنونه وتطلبونه فى الدنيا وتستعجلون أن يأتيكم .

التفسـير

٢٥ ـ (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

ويقول الكافرون من فرط عتوهم وتكذيبهم : متى يحدث ويتحقق الوعد بالحشر ، أخبرونا بزمانه أيها المؤمنون إن كنتم صادقين فى دعوى البعث والحشر .

٢٦ ـ (قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

قل لهم أيها الرسول جوابًا على سؤالهم : ما العلم بوقت القيامة إلَّا عند الله تعالى ، فهو من الغيب الذى استأثر الله به ، لأن الحكمة تقتضى ذلك ، وليس من وظائف النبوة إلَّا الإنذار بتحققه دون بيان وقته .

٢٧ - (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ) :

أى فلما رأى الكفار الحشر بعد البعث قريبًا منهم ظهرت الذلة والكآبة على وجوههم ؛ لأنهم أدركوا ما ينتظرهم من العذاب ، وقيل لهم - على سبيل التبكيت والتوبيخ - : هذا العذاب الذى يلى الحشر هو الذى كنتم به فى الدنيا تطلبون كقولكم ساخرين : « رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ »[1]. أى : عجل لنا نصيبنا من العذاب قبل يوم القيامة ، وكقولهم : « اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[2].

والتعبير عن العذاب الذى سوف يرونه بأنهم رأوه فعلًا ؛ لتنزيل وعد الله لهم بالعذاب المحقق منزلة الذى تحقق فعلًا .

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾)

المفـــردات :

(أَوْ رَحِمَنَا) : بالنصر عليكم .

(فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) : فمن يحميكم منه .

(غَوْرًا) : غائرًا ذاهبًا فى الأرض .

(بِمَآءٍ مَّعِينٍ) : بماء جار ، أو صاف ، فهو بوزن فاعل مِنْ مَعَنَ الماءُ ، أى : جرى ، أوصفا ، أو بوزن مفعول - وأصله معيون - من عين الماء : استنبطه واستخرجه .

---

(١) من الآية ١٦ من سورة (ص) . (٢) من الآية ٣٢ من سورة الأنفال .

التفسير

٢٨ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) :

قل أيها الرسول لقريش : أخبرونى إن أماتنى الله كما قلتم كذباً : « شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ » أو أهلك من معى من المؤمنين كما تمنيتم ، أو رحمنا فأبقانا ونصرنا عليكم ، فمن هذا الذى يجيركم ويحميكم من عذاب شديد الإيلام فى الآخرة ؟!

وحاصل المعنى : لا مجير لكم من عذاب النار لكفركم إن انقلبنا إلى رحمة الله بالهلاك كما تمنيتم ، لأن فيه الفوز لنا بنعيم الآخرة ، أو بالنصرة عليكم وإعزاز الإسلام كما نرجو ، لأن فيه الظفر بالحسنيين ، ويتضمن ذلك حثهم على طلب الخلاص من الكفر بالإيمان .

٢٩ - (قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

قل لهم أيها الرسول - جواباً لتمنيهم هلاكك - : هو الله الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فيجيرنا برحمته من عذاب الآخرة ، ولم نكفر مثلكم حتى تمتنع إجارته لنا ، فستعلمون بعد البعث من هو مِنَّا فى الدنيا والآخرة فى بعد واضح عن الحق .

٣٠ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ) :

قل لهم : أخبرونى إن أصبح ماؤكم الذى تشربون منه وتسقون غائراً فى الأرض واغلا فى جوفها ، فمن الذى يأتيكم بماء جار أو ظاهر للعيون سهل المأخذ ، لا تستطيع أصنامكم الإتيان به أو بمثله ، والآية كما روى ابن المنذر والفاكهى عن ابن الكلبى ، أنها نازلة فى بئر زمزم وبئر ميمون بن الحضرمى . والله تعالى أعلم .

سورة القلم

هى أول ما نزل من القرآن بعد العلق ، فقد روى عن ابن عباس أن أول ما نزل من القرآن اقرأ باسم ربك ثم هذه (أى : سورة القلم) ثم المزمل ، ثم المدثر ، وهى مكية وآيُها ثنتان وخمسون آية بالإجماع .

ومناسبة سورة القلم للسورة السابقة (سورة الملك) :

أن سورة الملك اختُتمت بالوعيد : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ) [1] واشتملت سورة القلم فى أوائلها عليه .

قال الجلال السيوطى فى ذلك : لما ذكر فى آخر سورة الملك التهديد بتغوير الماء استظهر عليه فى سورة القلم بإذهاب ثمر أصحاب البستان فى ليلة بطائف طاف عليها وهم نائمون ، فأصبحوا ولم يجدوا لجنَّتهم أثرًا حتى ظنوا أنهم ضَلُّوا الطريق إليها .

المعنى العام للسورة

فى السورة الكريمة قسم بالقرآن وما يُسطَّر به ، والمُقْسَم عليه : ما أنت يا محمد وقد أنعم الله عليك بالنّبوة وفضَّلك بالرِّسالة بمجنون ولا سفيه الرأى كما يدَّعى المشركون .

ثم ساقت بِشارة له : وإنَّ لك يا محمد على ما تبذله فى تبليغ الدعوة لأجرًا غير مقطوع ومَدْحًا كأبلغ ما يكون المدح والثَّناءُ (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) فقد أدَّبك ربّك فأحسن تأديبك ، وتسلية له .

وعن قريب ستبصر ويبصر الكافرون أيكم المجنون ، وإنَّ ربَّك أعلم بمن ضَلّ عن سبيله وحاد عن طريق الحق فكفر ، وهو أعلم بالعقلاء المهتدين المؤمنين .

---

(١) سورة الملك الآية : ٣٠ .

ثم ذكرت السورة توجيهاتها للرسول : فدم يا محمد على طريقتك مِنْ مُخَالفة المكذبين ، لقد تَمَنّوا لو تلين لهم بعض الشّيء وتعبد مايعبدون ولو زمنًا قليلًا فهم يَلِينُون لك لا حُبًّا فى الإسلام ولكن طمعًا فى ضَمِّك إلى صفّهم .

ثم نهت عن طاعة كل مَن اتّصف بهذه الصِّفات الذّميمة ، والنُّعوت القبيحة فقالت : (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ) ولأنّه صاحب مال وبنين كذب بآياتنا وأعرض عنها فجعل الكفران مكان الشكر والعرفان ، سنسمه بسمة ونجعل على أنفه علامة ليكون مفتضحًا بها بين الناس .

واشتملت السورة على تشبيه ماوقع لأهل مكة من العذاب والقحط بما وقع لأصحاب الجنة الّذين جاءت قصتهم فيها ، وعلى تبشير المؤمنين بما أُعِدَّ لهم عند ربّهم مِنْ جزاءٍ وثواب وعدم التّسوية بينهم وبين الكافرين ، وأنكرت على المكذبين مايدّعون لأنفسهم بغير حق (أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ) كما جاء فيها وصف حال الكافرين والمُعرضين ومايناله‌م من العقاب ، والنُّصح لرسول الله بالصبر والاحتمال ولا يكون كأخيه يونس ــ عليه السلام ــ فى سرعة غضبه والغضب على قومه ، وذكرت السورة ماكان الكفّار يُضْمِرُونه لرسول الله من بُغْض وعداوة وقد ظهر هذا على وجوههم وهم ينظرون إليه شزرا حين يتلو القرآن ، ويرمونه بالجنون .

وختمت بتمجيد القرآن وبيان فضل الرسول وقدره (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧)

المفـــردات :

(وَالْقَلَمِ) : قَسَمٌ بالقلم الذى يكتب به الملائكةُ والناس .

(غَيْرَ مَمْنُونٍ) : غير مقطوع يقال : مننت الحبل : إذا قطعته .

(بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ) : فى أى الفريقين منكم المجنون .

التفســير

١ ـ (نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) :

(نٓ) حرف من حروف المعجم التى بُدئت بها بعض السُّور وهى من المتشابه ، ومذهب السلف أنهم يقولون فى هذا ومثله : الله أعلم بمراده ، وقيل : اسم للسُّورة ، وقيل : اسم للدَّواة . وأنكر الزمخشرى ذلك وقال : لا دليل عليه من لغة ولا نقل صحيح ، وقيل غير ذلك ممَّا لا يُلْتَفت إليه .

(وَالْقَلَمِ) أقسم الله بالقلم الذى يكتب به الملائكة والناس وبما يكتبونه من الخير والنفع وغير ذلك ، وإنما استحق قلم الملائكة أن يُقْسَم به لأنَّهم يكتبون به ما فى اللَّوح المحفوظ ، ويُسجِّلُون به فى صحائفهم أعمال الناس ،وأمَّا استحقاق القلم الذى يكتب به الناس ذلك الشرف فلكثرة منافعه وعظيم فوائده ، ولو لم يكن له مَزِيَّة سوى تسجيل كتب الله ـ عز وجل ـ لكفى به فضلًا مُوجِبًا لتعظيمه ، كيف لا وهو الذى يُنْشَر به العلم ، وتُحَرَّر به الفنون والآداب وتذاع به المعارف والأخلاق والفضائل . قال أبو الفتح البستى :

إذا أقسم الأبطـال يومًا بسيفهم وعَدّوه مما يُكْسِب المجد والكرم

كفى قلم الكتَّاب عِزًّا ورفعة مدى الدهر أنَّ الله أقْسَم بالقلم

٢ ـ (مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) :

هذا هو الْمُقْسم عليه ، أى : انتفى عنك الْجنون بسبب نعمة ربك عليك ورحمته بك ، وهو الذى اصطفاك للرسالة ، وأهَّلك للنبوة لتخرج الناس من الظُّلمات إلى النور ومن الشرك إلى الإيمان ، والآية نزلت ردًّا على كفار مكة وتكذيبًا لهم فيما يقولون وما ينسبونه إليه من الجنون حسدًا وعداوة ومكابرة ، والمقصود أنت مُنَزَّه عما يقولون لأنك أُعْدِدت لتكون هادى البشرية كلها والقائد الخاتم للمسيرة الإلٰهية .

٣ ـ (وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ) :

أى : وإنَّ لك لِمُقَاسَاتِك ألوان الشَّدائد وأنواع المتاعب ، وتحمُّلك أعباء الرسالة ومشاق الدَّعوة لثوابًا عظيمًا وأجرًا جسيمًا غير مقطوع مع عظمه ، أو غير ممنون به عليك مِن الناس لأنَّه عطاؤه تعالى بلا وساطة ، أو من الله لأنَّك حبيبه ، وهو سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين ومن شِيمة الكرام ألَّا يَمُنُّوا بإنعامهم ، لا سيما إذا كان على أحبابهم .

٤ ـ (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) :

أى : وإنك لمستمسك بمكارم الصِّفات ومحاسِن الخلال التى طبعك الله عليها وأدَّبك بها ، لك خلق لا يُدرِك شأْوه أحد من الخلق ، تحتمل من جهتهم ما لا يحتمل أمثالك من أُولى العزم

وعن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) أى : وإنك لعلى دين عظيم هو الإسلام ، وليس أحبّ إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه ، وقال عطية : لَعَلَى أدب عظيم .

وفى صحيح مسلم سُئلت عائشة - رضى الله عنها - عن خُلُق رسول الله ؟ قالت : كان خلقه القرآن . ومعنى هذا أنه تأدب بآدابه وتحلَّى بأخلاقه وأحلّ حلاله وحرَّم حرامه ، هذا مع ما طبعه الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحكمة وكل خلق جميل كما ثبت فى الصحيحين عن أنس قال : « خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى أفٍّ قط ، ولا قال لشىء فعلته لم فعلته ؟ ولا قال لشىء لم أفعله ألّا فعلته ، وكان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا » . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة ، ولأبى عيسى الترمذى فى هذا كتاب الشمائل

٥ ، ٦ - (فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ) :

أى فستعلم يا محمد علمًا يقينيا وسيعلم مخالفوك أيكم المفتون أى المجنون لأنه فُتِن ، أى مُحِنَ بالجنون ، وقيل المعنى : فستبصر ويبصرون بأى الفريقين منكم الفتنة أى الجنون أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين وفى أيِّهما يُوجد منْ يستحق هذا الاسم ، وهو تعريض بأبى جهل والوليد بن المغيرة وأحزابهما وهو كقوله تعالى : « سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ[1] » .

والمراد فستعلم ويعلمون ذلك يوم القيامة حين يتبين الحق من الباطل ، وروى ذلك عن ابن عباس ، وقيل : فستبصر ويبصرون فى الدنيا بظهور عاقبة الأمر بغلبة الإسلام وانتصارك عليهم وعلو شأنك وصيرورتهم أذلة صاغرين .

٧ - (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) :

استئناف لبيان ما قبله وتأكيد لما تضمَّنه من الوعد والوعيد ، فهو سبحانه أعلم بمن

---

(١) سورة القمر الآية : ٢٦ .

حاد عن طريقه المؤدى إلى سعادة الدارين وهام فى تيه الضّلال المُفْضِى به إلى الشّقاوة ومزيد النّكال وهذا هو المجنون الذى لا يفرق بين النفع والضر ، وهو سبحانه أعلم بالمهتدين إلى سبيله الفائزين بكلّ مطلوب النّاجين من كل محذُور وهم العقلاء ، فَيَجْزِى كُلاًّ من الفريقين بما يستحق من العقاب والثواب .

وفى الكشاف : إن ربك هو أعلم بالمجانين على الحقيقة وهم الذين ضلوا عن سبيله وهو أعلم بالعقلاء وهم المهتدون .

(فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾)

المفــــردات :

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ) : تمنوا لو تلين لهم بعض الشيء وتصانعهم فى الدين .

(مَهِينٍ) : وضيع حقير ، قال القرطبى : من المهانة بمعنى القلة وهى هنا القلة فى الرأى والتمييز .

(هَمَّازٍ) : طعَّان عيَّاب للناس فى وجوههم أو مُغتاب لهم (قتَّات) .

(مَشَّآءٍ بِنَمِيمٍ)[1] : نقَّال للحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم .

---

(١) قيل النميم جمع نميمة يريدون الجنس ، وأصل النميمة : الهمس والحركة الخفيفة .

(عُتُلٍّ) : غليظ القلب جاف الطَّبع ، وقيل : الذى يعتل الناس فيجرهم إلى حبس أو عذاب مأخوذ من العَتْل وهو الجرّ ومنه قوله تعالى : « خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ الْجَحِيمِ » [١]

(زَنِيمٍ)[٢] : دعىّ مُلصق بقوم ليس منهم ، أو شِرِّير .

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أباطيلهم المسطَّرة فى كتبهم .

(سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) : سنجعل له سمة وعلامة على الأنف ، والمراد : سنلحق به عارا لايفارقه كالرسم على الأنف

التفسير

٨ ـ (فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ) :

الفاء فى الآية لترتيب النهى على ماينبىء عنه ما قبله من اهتدائه ﷺ وضلالهم ، وفى هذا حث له على التَّصميم والعزم على عصيانهم ومخالفتهم .

والمعنى : قَدُمْ على ما أنت عليه من مخالفة المكذبين وعدم طاعتهم ، وتَشَدَّد فى ذلك ، ويجوز أن يكون نهيًا عن مُداهنتهم ومُداراتهم بإظهار خلاف ما فى ضميره ﷺ استجلابًا لقلوبهم ، لا نهيًا عن طاعتهم حقيقة ، وعُبِّر عن المداهنة بالطاعة للمبالغة فى التنفير .

٩ ـ (ودُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) :

المعنى : تمنّوا وأحبوا لو تُلاينهم وتُصانعهم وتنزل على رغبتهم أحيانًا (فَيُدْهِنُونَ) أى فهم يدهنون ويلاينونك ويصانعونك حينئذ ، فالفاء للسببية داخلة على جملة اسمية مسببة عمَّا قبلها .

وقيل المعنى : أنهم يدهنون الآن طمعًا فى ادهانك واستجابتك لهم ومشاركتهم فى بعض عباداتهم .

---

(١) سورة الدخان ، الآية : ٤٧ .

(٢) أصله من الزنمة (بفتحات) وهى ما يتدلى من الجلد فى العنق ، أو الفلقة من أذنه تشق فتترك معلقة ، شبه بها الدعى لأنه زيادة معلقة فى غير أهله . ا هـ . آلوسى .

١٠ - (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ) :

المعنى : وتمسك بما أنت عليه من عدم طاعة كل كثير الحلف فى الحق والباطل ، وكفى بهذا النهى زجرًا لمن اعتاد الحلف لأنه جُعِل فاتحة العيوب وأساس الباقى من الذنوب ، وكثرة الحلف تدل على عدم استشعار عظمة الله - عز وجل - وذلك أصل كل شر . (مَهِينٍ) أى : حقير وقال الرمانى : المهين : الوضيع ، لإكثاره من القبيح . وعن ابن عباس : الكذاب .

١١ - (هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ) :

(هَمَّازٍ) أى : عيَّاب طعَّان أو مغتاب . (مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ) : نقَّال للحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم ، فهو يحرض بعضهم على بعض لفساد ذات البين وهى الحالقة .

وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : مرّ رسول الله ﷺ بقبرين فقال : [إنَّهُمَا يُعذَّبان ومايعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لايستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة] ، وروى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : [لايدخل الجنة قَتَّات] : أى : نَمَّام . والأحاديث فى ذلك كثيرة .

١٢ - (مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) :

(مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ) أى : بخيل ممسك بالمال ، من منع معروفه عنه : إذا أمسكه ، أو منَّاع أهله الخير وهو الإسلام ، قيل : هو الوليد بن المغيرة المخزومى كان مُوسِرًا وكان له عشرة من البنين وكان يقول لهم ولأقربائه : من أسلم منكم منعته رِفْدِى وعطائى .

روى ذلك عن ابن عباس ، وعنه أيضًا أنه أبوجهل ، وقيل غيرهما

(مُعْتَدٍ) : مجاوز فى الظلم حَدَّه . (أَثِيمٍ) أى : كثير الآثام ، والمراد بها المعاصى والذنوب .

١٣ - (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ) :

(عُتُلٍّ) أى : غليظ جاف ، وإنَّمَا نهى -سبحانه- عن طاعة العُتُلّ وجعل غلظته أشد معايبه لأنه لقسوة قلبه وغلظ طبعه يجترىء على كل معصية .

(بَعْدَ ذَٰلِكَ) أى : بعد ما عدّ له من المثالب والنقائص . (زَنِيمٍ) دَعِيّ مُلْحق بقوم ليس منهم ، والمراد به ولد الزّنا كما جاء بهذا اللفظ عن ابن عباس ، وكذا جاء عن عكرمة وأنشد :

زنيم ليس يعرف من أبوه بغىّ الأم ذو حسب لئيم

وإنما نهى عن طاعة الدّعىّ لأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الناشىء منها ، وعن سعيد بن جبير : الزّنيم الذى يُعْرَف بالشر كما تُعْرف الشاة بزنمتها وهى ما يتدلى من رقبتها كما سبق بيانه فى المفردات : والزنيم ، الملصق .

قال ابن كثير : والأقوال فى الزنيم كثيرة ، وغالبها يرجع إلى ما ذهب إليه سعيد بن جبير ، وكثيرًا ما يكون دعيا ولد زنا فإنّه فى الغالب يتسلّط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره . اه بتصرف .

١٤ـ (أن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) :

هذا الكلام متصل بقوله ـ سبحانه ـ : (لَا تُطِعْ ...) إلخ أى : لا تطع مَن هذه عيوبه ونقائصه بسبب كونه مُوسرًا معتدًا بماله مُنْجبًا مُعْتزًا ومتقويًا بأبنائه .

١٥ـ (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) :

استئناف جرى مجرى التعليل للنّهى عن اتباعه ، والمعنى : إذا يُقْرأ عليه القرآن كَذَّب ولم يؤمن بما جاء به وقال : هذا قصص الأولين وخرافاتهم وأكاذيبهم الواردة فى كتبهم ، ويجوز أن يكون قوله ـ تعالى ـ : (أن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) متصلًا بما بعده .

والمعنى : لأنْ كان صاحب مال ومستظهرا بالبنين كذب بآياتنا ، وأعرض عنها إذا يتلى عليه القرآن قال : أساطير الأولين وأباطيلهم ، فجعل الكفر مكان الشكر والتكذيب موضع التصديق والإيمان .

١٦ـ (سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) :

أى : سنجعل على أنفه سمة دائمة وعلامة لازمة لا تفارقه ، يُعيّر ويفتضح بها أمام الناس فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والمهانة ، لأنّ السِّمة على الوجه شين حتى إنه ﷺ نهى[1] عنه فى الحيوانات ، فكيف بها فى الإنسان وعلى أكرم موضع منه وهو الأنف

(١) ذكر الزمخشرى أن العباس عم النبى وسم أباعرة فى وجوهها فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «أكرموا الوجوه» فوسمها فى جواعرها (جمع جاعورة وهى ما حول الدبر كما جاء فى الصحاح) .

لتقدمه ، لذا جعلوه مكان العز والحميّة واشتقوا منه الأنفة ، وقالوا : فلان شامخ الأنف ، وفى لفظ (الخرطوم) استخفاف به واستهانة ، لأنه لايستعمل إلا فى الفيل والخنزير ، فنى التعبير عن الأنف بهذا الاسم تقوية لما دل عليه الوسم على العضو المخصوص من الإذلال ، والمراد : سنهينه فى الدنيا ونذله غاية الإذلال .

وكون الوعيد المذكور فى الدنيا هو المروى عن قتادة وذهب إليه جمع ، وقيل : هو فى الآخرة ، يُوسم يوم القيامة على أنفه بسمة يعرف بها كفره وانحطاط قدره .

(إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾)

المفـردات :

(إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ) : إنَّا امتحنا أهل مكة واختبرناهم بالقحط .

(الْجَنَّةِ) : البستان المشتمل على أنواع الأشجار والثمار والفواكه .

(لَيَصْرِمُنَّهَا) : ليقطعنَّ ثمرها بعد نُضجها .

(مُصْبِحِينَ) : داخلين فى وقت الصباح مبكرين .

(وَلَا يَسْتَثْنُونَ) أى : ولا يقولون : إن شاء الله ، وقيل : ولا يستثنون حصة المساكين كما كان يفعل أبوهم .

(طَآئِفٌ) : بلاء وعذاب محيط بها ـ نار محرقة ـ .

(كَالصَّرِيمِ) : كالليل الأسود ، وقيل : كالبستان إذا صرمت أى : قطعت ثماره .

(صَارِمِينَ) : قاصدين للصرم وقطع الثمار .

(يَتَخَافَتُونَ) : يتسارّون ويتشاورون فيما بينهم بطريق المُخافتة .

(حَرْدٍ) : منع ، أو انفراد عن المساكين ، أو غيظ وغضب .

(إِنَّا لَضَآلُّونَ) أى : إنَّا لضالُّون طريق جنتنا .

(أَوْسَطُهُمْ) : أحسنهم رأيا ، أو أوسطهم سِنا .

(لَوْلَا تُسَبِّحُونَ) : هلا تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم .

(يَتَلَـٰوَمُونَ) : يلوم بعضهم بعضا .

(إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ) : إنا إلى ربنا لا إلى غيره راجون العفو طالبون الخير .

التفسير

١٧ ـ (إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ) :

أى : إنا اختبرنا أهل مكة وأصبْناهم ببليّة وهى القحط بدعوة رسول الله ﷺ حيث قال : (اللهم اشدد وطأتك على مُضَر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف) .

(كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ) أى : مثل مابلونا أصحاب الجنة المعروف خبرها عندهم ، قيل : كانت بأرض اليمن قريبا من صنعاء لرجل كان يؤدى حق الله منها فمات فصارت إلى ولده فمنعوا النّاس خيرها وبخلوا بحق الله منها ، فكان ماذكره الله تعالى .

(إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ) أى : إذ حلفوا ليقطعن ثمارها بعد نضجها واستوائها وقت الصباح قبل أن يخرج المساكين كى لا يشعر بهم المساكين ، فلا يعطونهم منها ما كان أبوهم يتصدق به عليهم منها .

١٨ ـ (ولَا يَسْتَثْنُونَ) :

قيل : أى : ولايقولون إن شاء الله ، وقيل : المعنى ولايستثنون منها حصة المساكين كما كان يفعل أبوهم (وعليه هو معطوف على قوله تعالى : « لَيَصْرِمُنَّهَا » ومقسم عليه مثله) .

١٩ ـ (فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ) :

المعنى : نزل على الجنة وأحاط بها من كل جانب بلاءٌ محيط وعذاب .

وعن الفرّاء : تخصيص الطائف بالأمر الذى يأتى بالليل . وكان ذلك ـ على ماقال ابن جريج ـ عُنُقا من نار خرج من وادى جنتهم (وَهُمْ نَآئِمُونَ) فى موضع الحال ، والمراد : أتاها ليلا كما روى عن قتادة ، وقيل : المراد أنهم غافلون غفلة تامة عما جرت به المقادير .

٢٠ ـ (فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ) :

أى فأصبحت جنتهم كالبستان الذى صُرِمت ثماره وقطعت بحيث لم يبق فيها شئٌ وقال منذر والفرّاء وجماعة : الصّريم : الليل ، والمراد : أصبحت محترقة تشبه الليل فى السواد ، ذكر ابن كثير عن ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ : (إياكُمْ والمعاصى ، إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقا قد كان هُيِّئ له) ثم تلا رسول الله ﷺ : (فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ) .

٢١ ، ٢٢ ـ ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ :

أى : فنادى بعضهم بعضا وقت الصباح وذلك للقسم السابق : أن اخرجوا مبكرين مقبلين على بستانكم إن كنتم مصرين على الصرم وقطع الثمار ، ويحتمل إن كنتم أهل عزم وإقدام على رأيكم من قولهم : سيف صارم .

٢٣ ، ٢٤ ـ ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ :

أى فاندفعوا مسرعين وهم يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافتة والمسارّة متواصين قائلا بعضهم لبعض : لايمكن أحد منكم اليوم مسكينا من دخول الجنة عليكم ، فالنهى عن الدخول للمسكين نهى عن تمكينه منه حتى لايناله من الثمار شىء .

٢٥ ـ ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ :

أى وساروا فى أول النهار إلى جنتهم قادرين على (حرد) فيه عدة أقوال :

(١) هو المنع كما قال أبوعبيدة وغيره ، من حَردت السنة : منعت خيرها ، وحاردت الإبل : منعت درها .

والمعنى : وغدوا إلى جنتهم قادرين على منع لاغير عاجزين عن النفع .

(٢) وقيل الحرد : الغيظ ، أى : لم يقدروا إلاّ على إغضاب بعضهم لبعض كقوله تعالى : ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾[1] وروى هذا عن السّدىّ .

(٣) وقيل الحرد : القصد والسرعة ، وللحرد معان أخرى ذكرها القرطبى والآلوسى والزمخشرى .

٢٦ ، ٢٧ ـ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ :

فأول ماوقع نظرهم عليها ورأوها سوداء محترقة لاشىء فيها قد صارت كالليل الأسود ينظرون إليها كالرماد ، أنكروها وشكّوا فيها وقالوا مضطربين متحيرين : إنّا لضالّون طريق

---

(١) سورة القلم ، الآية : ٣٠ .

جنتنا ، وماهى بها (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) قالوا ذلك بعد ماتأملوا ووقفوا على حقيقة الأمر وتيقنوا مافُعِل بجنتهم مُضربين عن قولهم الأول ، أى : لَسْنَا ضَالِّين بل نحن محرومون حُرِمنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا وسوء نيتنا وقصدنا حرمان الفقراء .

٢٨ - (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ) :

قال أعدلهم وخيرهم : (أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ) أى : لم أقل لكم؟ وفى التسبيح قولان :

(١) قيل : المراد الذكر ، أى : هلا تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، كان أوسطهم قال لهم حينما عزموا على حرمان الفقراء : اذكروا الله وانتقامه من المجرمين وتوبوا عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم ، وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النقمة ، فعصوه فوبّخهم. والدليل على ذلك قولهم بعد هذا : (سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) فتكلموا بما كان يدعوهم إلى التكلم به على إثر مقارفة الخطيئة وارتكاب الإثم .

(٢) وقيل : المراد بالتسبيح - الاستثناء : وهو أن يقولوا إن شاء الله، ويلتقى هذا مع الأول فى معنى التّعظيم ، لأن الاستثناء تفويض إلى الله ، والتّسبيح تنزيه له ، وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم .

٢٩ - (قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ) :

قالوا بعد أن ثابوا إلى رشدهم ورجعوا إلى عقولهم : نُسبّح الله ونُنَزّهه عن الظلم وعن كل قبيح ، ثم اعترفوا بظلمهم ومنع المعروف عن مستحقيه والبخل بما كان يعطيه والدهم للفقراء والمساكين ، وفى تركهم الاستثناء قال ابن كثير : وهكذا أتوا بالطاعة حيث لا تنفع أو اعترفوا حيث لاينجع .

٣٠ - (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ) :

أى : فأقبل بعضهم على بعض يلوم كل منهم الآخر فى القسم والحلف على منع المساكين أى يقول : بل أنت أشرت علينا بهذا ، فإن منهم - على ماقيل - مَن أشار بذلك ، ومنهم من استحسنه ومنهم من سكت راضيا ومنهم من أنكره .

٣١ ـ (قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ) :

أى قالوا : ياعذابنا وهلاكنا إنا كنا طاغين ـ اعتدينا وبغينا وتجاوزنا الحد عاصين بمنع الفقراء : وقال ابن كيسان : طغينا نِعَم الله فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل حتى أصابنا ما أصابنا .

٣٢ ـ (عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ) :

نرجو الله أن يعوضنا خيرا من جنتنا ويعطينا بدلا منها ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة إنَّا إلى ربنا ـ لا إلى غيره ـ راغبون : راجون العفو طالبون الخير .

وعن مجاهد أنهم تابوا فأُبدلوا خيرا منها .

٣٣ ـ (كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) :

أى : مثل ذلك العذاب الذى بلونا به أهل مكة من الجدب الشديد ومثل ماقصه الله علينا مما أصاب أهل هذه الجنة ـ عذاب الدنيا ، والكلام وارد لتحذير أهل مكة ـ وتخويفهم كأنه لما نهى ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه عن طاعة الكفار ورؤسائهم ، ذكر ـ عز وجل ـ أن تمردهم هو بسبب ما أوتوه من المال والبنين ، وعقّب ـ جل وعلا ـ بأنهم إذا لم يشكروا المنعم عليهم يؤول حالهم إلى حال أصحاب الجنة مشيرا إلى أن خُبث النّية وإنكار حق الفقير إذا أفضى بهم إلى ما ذكر من العذاب فإن إنكار الحق بمعاندة الرسول ذى الخلق الكريم وقطع رحمه أولى بأن يُفْضِى بأهل مكة إلى البوار والخسران والعقاب .

ثم ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ عذابهم فى الآخرة فقال : (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ) أى : أعظم وأشد وأشقّ وهو تحذير عن العناد ، وقوله تعالى : (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) نَعْىٌ عليهم بالغفلة وتقريع لهم ، أى : لو كانوا من أهل العلم لعلموا أنه أكبر ، ولأخذوا منه حِذْرهم ولما وقعوا فيما وقعوا فيه .

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾)

المفـــردات :

(أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ) أى : بل لكم كتاب منزل من السماء .

(فِيهِ تَدْرُسُونَ) : فيه تقرأون .

(إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ) أى : إن الذى تختارونه وتشتهونه لكم مذكور فى ذلك الكتاب .

وتَخَيَّر الشيء واختاره : أخذ خَيْرَه ، وشاع فى أخذ مايريده مطلقا .

(أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ) أى : بل ألكم عهود ومواثيق مؤكدة بالأَيْمَان .

(إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ) أى : إنَّ لكم لَلّذى تحكمون به لأنفسكم .

(زَعِيمٌ) : كفيل وضمين .

التفسير

٣٤ - (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ النَّعِيمِ) :

لَما ذكر - تعالى - حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله - عزَّ وجلَّ - وخالفوا أمره ، بيَّن أنَّ لمن اتَّقاه وأطاعه فى الدار الآخرة جنات النعيم ، أى : جنات ليْس فيها إلاَّ النَّعيم الخالص من شائبة ماينغِّصه من الأَكدار وخوف الزوال .

٣٥ ، ٣٦ - (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) :

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ) : تقرير لما قبله من فوز المتقين وردّ لما يقوله الكَفَرة من صناديد قريش حين سماعهم بحديث الآخرة وما وعد الله به المؤمنين ، يقول الكفرة : إنْ صَحَّ أنَّا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ماهى فى الدنيا وإلَّا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا وأقصى أمرهم أن يساوونا ، فقيل لهم : أَنَحِيف ونظلم فى الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين ؟! ثم قيل لهم على طريق الالتفات تأْكيدا للرد وتعجبا من حكمهم واستبعادا له وإيذانا بأَنه لايَصْدُر عن عاقل : (مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) : إذ معنى مالكم : ماذا أَصابكم ، وأى شئ حصل لكم مِنْ خَلَلِ الفكر وفساد الرأى حتى حكمتم هذا الحكم الجائر ، كأَنَّ أمر الجزاء مُفَوَّض لكم حتى تحكموا فيه بما شئتم .

٣٧ ، ٣٨ - (أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ) :

يقول - تبارك وتعالى - : بل أفبأَيديكم كتابٌ مُنَزَّل من السماءِ تقرءُونه وتدرسونه وتحفظونه وتَتَداولونه بنقل الخلف عن السلف يتضمن أنَّ ماتختارونه وتشتهونه لكم ؟ قال الآلوسى والظَّاهر مقابل لما قبله ومُلَخَّصه : أَفَسد عقلكم حتى حكمتم بهذا أم جاءكم كتاب فيه تخييركم وتفويض الأَمر لكم ؟ !

٣٩ - (أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ) :

المعنى : بل ألكم عهود علينا ومواثيق مؤكدة بالأَيمان باقية ثابتة إلى يوم القيامة ؟ إنَّ لكم لَلَّذِى تحكمون به وتقضون وسيصل إليكم ماتحبون وما تشتهون .

وقوله تعالى : (إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ) جواب القسم ؛ لأن معنى (أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ) أم أقسمنا لكم.

٤٠ ـ (سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ) :

المعنى : سل المشركين يامحمد مُبَكِّتاً لهم : أيُّهم بذلك الحكم الذى يحكمون به لأنفسهم منْ أَنَّهُم يعطون فى الآخرة أفضل من المؤمنين ـ أيهم كفيل وقائم بتنفيذه وإمضائه وبالاحتجاج لصحته ، كما يقوم الزَّعيم المتكلِّم عن القوم المتكفِّل بأُمورهم ، فضلا عن أنه حكم جائر ، خارج عن دائرة المعقول ، وكأَنَّه بتوجيه الخطاب لرسول الله أَسْقَطَهم مِنْ رُتبة الخطاب إهمالا لهم.

٤١ ـ (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ) :

أى : بل ألهم أُناس يشاركونهم فى هذا القول ويوافقونهم عليه ، ويذهبون مذهبهم فيه فليأتوا بشركائهم إنْ كانوا صادقين فى دعواهم ، يعنى أَنَّ أَحداً لايُسلم لهم هذا ولا يساعدهم عليه ، كما أنهم لاكتاب لهم ينطق به ، ولا عهد لهم به عند الله ، ولا زعيم لهم يقوم به ويتصدى لإنفاذه .

قال العلامة الآلوسى : وقد نَبَّه ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذه الآيات على نفى جميع مايمكن أن يَتَعَلَّقُوا به فى تحقيق دعواهم ، حيث نَبَّه ـ سبحانه ـ على نفى الدليل العقلى بقوله سبحانه : (مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) وعلى نفى الدَّليل النَّقْلى بقوله سبحانه : (أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ) وعلى نفى أن يكون الله وعدهم بذلك بقوله تعالى : (أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ) وعلى نفى التَّقْليد الذى هو أَهْوَن الأشياء بقوله : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ) إلخ اهـ . آلوسى .

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾)

المفـــردات :

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ) : كناية عن شدة هول يوم القيامة .

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ) : ذليلة منكسرة .

(تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) : تغشاهم ذلة مرهقة وخسران .

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ) : سنستنزلهم إلى العذاب درجة فدرجة بالإمهال حتى نوقعهم فيه .

(وَأُمْلِي لَهُمْ) : وأمهلهم بتأخير العذاب ليزدادوا إثماً .

(كَيْدِي مَتِينٌ) : تدبيرى قوىّ لايفلت منه أحد .

(مَغْرَمٍ) : غرامة مالية .

التفسـير

٤٢ - (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ) :

لَمَّا ذكر - جلَّ شأنه - أنَّ للمتقين عند ربهم جنات نعيم بيَّن متى يكون ويقع ذلك فقال : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ... إلخ) أى :يوم يكشف عن ساق كان كذا وكذا فأُضمر للتهويل البليغ وأنَّ ثمَّ من الحوادث والأخطار ما لا يوصف لعظمه ، والمراد بذلك اليوم عند الجمهور: يوم القيامة ، والساق : ما فوق القدم ، وكشفها : مَثَل فى شدة الأمر وصعوبة الخطب

وقيل : ساقُ الشيء : أَصْلُه الذى به قوامه كساق الشجرة ، والمراد : يوم يُكْشف عن أصل الأمر فتظهر حقائق الأشياء وأصولها بحيث تصير عيانًا ، وإلى هذا يشير ما أخرجه البيهقى عن ابن عباس قال : حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال .

وذهب بعضهم إلى أنَّ المراد بالسَّاق ساقه ــ سبحانه وتعالى ــ وأن الآية من المتشابه ، واستدل على ذلك بما أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى سعيد قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يَكشِفُ ربُّنا عن ساقِه فَيسجُدُ له كلُّ مؤمن ومؤمنة ، ويبقى مَنْ كان يسجد فى الدنيا رياءً وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا) .

وأنكر ذلك سعيد بن جبير فقد سئل عن الآية فغضب غضبًا شديدًا وقال : إن أقوامًا يزعمون أن الله سبحانه يكشف عن ساقه وإنما يكشف عن الأمر الشديد ، وعليه يحمل ما فى الحديث (الآلوسى) .

(وَيُدعَوْنَ إِلَىٰ السُّجُودِ) أى : ويدعون إلى السجود لا تعبدًا وتكليفًا ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركهم إيَّاه فى الدُّنيا وتَخْييرا لهم على تفريطهم فى ذلك ، أو امتحانًا لإيمانهم .

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ) لزوال القدرة عليه ، وفيه دلالة على أنهم يقصدونه فلا يستطيعون ولا يتأتَّى منهم ، والظاهر أنَّ الداعي هو الله تعالى أو الملائكة ، وقيل : هو ما يرونه من سجود المؤمنين .

٤٣ ــ (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَىٰ السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ) :

بين الله ــ سبحانه ــ حال من يُدْعَوْن إلى السجود يوم القيامة فلا يستطيعون بأنهم خاشعة أبصارهم ، أى : منكسرة ذليلة تلحقهم وتغشاهم مهانة وندامة وحسرة ، وقد كانوا يُدْعوْن إلى السجود فى الدنيا وهم سالمون مُعَافُون متمكِّنون منه أقوى تمكُّن فلا يُجيبون إليه ويَأْبَوْنه ويَنْفِرون منه تكبرا أو إعْراضا ، لذلك عُوقِبوا بعدم قدرتهم عليه فى الآخرة ، روى أنه كلما أراد أحدهم أن يسجد خرَّ لقفاه على عكس السجود بخلاف ما عليه المؤمن .

ذكر القرطبي أن سعيد بن جبير قال فى تفسير قوله تعالى : (وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ) : كانوا يسمعون (حى على الفلاح) فلا يجيبون ، وقال كعب الأحبار : والله ما نزلت هذه الآية إلا فى الذين يتخلفون عن الجماعات ، وكان الربيع بن خيثم قد فُلِج وكان يُهَادَى بين الرجلين إلى المسجد فقيل : يا أبا يزيد لو صليت فى بيتك لكانت لك رخصة . فقال : من سمع حَيّ على الفلاح فليُجب ولو حَبْوًا – ومعنى يُهَادَى – أى : يمشى بينهما معتمدًا عليهما لضعفه .

٤٤ – (فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) :

(فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ) أى : إذا كان حالهم ما سمعت فَكِلْ من يُكَذِّب بالقرآن إلىَّ فأنا أكفيكه ، قال الزمخشرى : فكأنه يقول : حسبك إيقاعًا به وعقابا له أنْ تكل أمره إلىَّ وتُخلِّى بينى وبينه فأنا عالم بما يجب أن يُفعَل به مُطِيق له وقادر عليه .

وذلك تسلية للرسول وتهديد للمكذبين . (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ) : استئناف مسوق لبيان كيفية العقاب والتعذيب ، أى : سنستنزلهم إلى العذاب درجة فدرجة بالإمهال وإدامة الصحة وازدياد النعمة . (مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) أى : من الجهة التى لا يشعرون أنَّ ذلك الإنعام عليهم استدراج بل يزعمون أن ذلك إيثار لهم وتفضيل على المؤمنين مع أنه سبب هلاكهم .

٤٥ – (وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ) :

(وَأُمْلِى لَهُمْ) : وأمْهلهم بتأخير العذاب وأمنحهم كثيرًا من النعم ليزدادوا إثما وهم يحسبون أن ذلك لإرادة الخير بهم . (إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ) إن تدبيرى وعذابى لقوىٌّ شديد لا يُدْفع بشىء فلا يفوتنى أحد ولا يعجزنى ، وسمَّى إحسانه وتمكينه وإمهاله لهم كيدا كما سمَّاه استدراجًا فيما سبق لكونه فى صورة الكيد والاستدراج ، حيث كان ذلك سببًا لتورطهم فى الهلاك والوقوع فيه ، والله سبحانه يفعل بهم ما هو نفع لهم ظاهرًا وهو ضرر لهم فى الحقيقة لِمَا عَلِم من خُبْث نيَّتهم وفساد طبيعتهم وتَمَادِيهم فى الكفر والعصيان ، ووصف كيده بالمتانة لقوة أثره فى التَّسبُّب للهلاك .

٤٦ - (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ) :

عاد الكلام إلى ماتقدم من قوله تعالى : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ ...) الآية ، أى : أم تلتمس وتطلب منهم على هدايتك لهم ودعوتهم إلى الله وإرشادهم إلى الإيمان أجرًا دنيويًّا وثوابًا ماديًّا فهم من غرامة ذلك مثقلون لِمَا يشق عليهم من بذل المال ، فيثبّطهم ذلك عن الإيمان بالله والاستجابة لما تدعوهم إليه فيُعرضون عنك بسبب ذلك ، والأمر ليس كذلك فليس عليهم كلفة ولا غرامة مالية ، بل سيستولون بمتابعتك على خزائن الأرض فى الدنيا ويصلون إلى جنات النعيم فى الآخرة .

٤٧ - (أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ) :

أى : بل أعندهم علم الغيب فهم يكتبون عنه ما يحكمون به لأنفسهم مِنْ أنّهم أفضل منك وأنهم لا يعاقبون وغير ذلك مِمَّا يدعون ، واستغنوا بذلك عن علمك ؟! وقيل المعنى : أينزل عليهم الوحى بهذا الذى يحكمون ؟ ! ليس عندهم شىء من ذلك .

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾)

المفـــردات :

(صَاحِبِ الْحُوتِ) : يونس عليه السلام .

(مَكْظُومٌ) : مملوء قلبه غيظًا وغضبًا ، وقيل : مغموم مكروب .

(لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ) : لطرح من بطن الحوت بالأرض الفضاء المهلكة .

(فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ) : فاصطفاه بقبول توبته .

(وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ)أى : ينظرون إليك نظرًا شديدا يكاد يصرعك ويسقطك من مكانك لبغضهم لك .

التفسير

٤٨ - (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ) :

المعنى : فاصبر يامحمد لحكم ربك : وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم مع ما تعانيه منهم من أذى وكرب وبلاء ، فإن الله سبحانه سيحكم لك عليهم ، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة ، روى أنه ﷺ أراد أن يدعو على ثقيف لَمَّا آذوه حين عرض نفسه على القبائل فنزلت .

(وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ)وهو يونس -عليه السلام- أى : لا تكن مثله فى العجلة والضجر والغضب على قومه ، فكان من أمره ما كان من ركوبه فى البحر والتقام الحوت له وشروده به فى البحار وظلمات اليم (إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ) حين دعا ربه فى بطن الحوت فقال : (لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) ، (وَهُوَ مَكْظُومٌ) أى : وقلبه مملوء بالغيظ والغضب على قومه إذ لم يؤمنوا حين دعاهم إلى الإيمان فطلب من ربه تعجيل عذابهم ، والمراد : ولايكن حالك كحاله وقت ندائه ،ولا يُوجد منك ماوُجِد منه من المغاضبة والدُّعاء على قومه بالعذاب ؛ فتُبتلى بنحو بلائه عليه السلام .

٤٩ - (لَوْلَآ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ) :

المعنى : لولا أن تداركته نعمة من ربه - وهى توفيقه للتوبة وقبولها - لطرح من بطن الحوت بالأرض الفضاء الخالية من الأشجار وغيرها مذمومًا مُعاقبًا على ما صدر منه ، ولكن أدركته رحمة ربه وعنايته به فَطُرِح سقيمًا غير مذموم : أى ، غير مبعد عن كل خير ، وقيل المعنى : لولا فضلُ الله عليه بقبول توبته وتسبيحه لبقى فى بطن الحوت إلى يوم القيامة ثم نُبِذ بعراء القيامة مذمومًا ، يدل عليه قوله تعالى : « فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ »[1] ذكره القرطبى .

٥٠ - (فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) :

(فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ) أى فتداركته نعمة من ربه فاجتباه ، أى : اصطفاه بأن رد - عز وجل - إليه الوحى وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون ، وقيل : استنبأه إنْ صَحّ أنَّه لم يكن نبيًّا قبل هذه الواقعة ، وإنَّما كان رسولًا لبعض المرسلين (فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) أى : من الكاملين فى الصَّلاح بأن عصمه - سبحانه - من أن يفعل فعلًا يكون تركه أولى .

٥١ - (وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) :

المعنى :

١ - إنهم لِشدَّة عداوتهم وبغضهم لك ينظرون إليك شزرًا وحقدًا بحيث يكادون يزلُّون قدمك ويُزيلُونك من مكانك ، من قولهم : نظر إلى نظرًا يكاد يصرعنى أو يكاد يأكلنى ، أى : لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله .

٢ - وقيل المعنى : إنهم يكادون يصيبونك بالعين ، ولقد كان ذلك معروفًا فى بنى أسد ، ذكر الآلوسى وغيره أن الكفار سألوا رجلًا منهم أن يصيب رسول الله بالعين فأجابهم ، فلما مر النبى ﷺ أنشد الرجل :

قد كان قومُك يحسبونَك سيدًا   وإخـالُ أنَّك سَـيِّدٌ معيون

(١) سورة الصافات ، الآيتان : ١٤٣ ، ١٤٤

فعصم الله نبيه ﷺ فنزلت هذه الآية ، وذكر نحوه الماوردى والقرطبى وكذلك الكشاف مع اختلاف فى بعض العبارات ، وعبارة الكشاف : فقال الرجل لرسول الله : لم أرَ كاليوم رجلًا – يريد بذلك أنه لم يَرَ رجُلًا مثلَ الرسولِ – فعصمه الله .

ولقد صَحَّ من عدة طرق أن العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر ، فالعين حق . وذلك من خصائص بعض النفوس ، والله تعالى أن يخص ما شاء منها بما شاء .

قال العلامة الآلوسى فى تعقيبه على ذلك : وأنا لا أزيد على القول بأنه من تأثيرات النفوس (ولا أكيِّف ذلك) فالنفس الإنسانية من أعجب مخلوقات الله – عز وجل – وكم طوى فيها أسرارًا وعجائب تتحيَّر فيها العقول ولاينكرها إلَّا مجنون أو جهول .

ولا يسعنى أن أنكر العين لكثرة الأحاديث الواردة فيها ومشاهدة آثارها على اختلاف الأعضاء .

ولابن كثير كلام كثير فى هذا المقام فليرجع إليه من أراد .

(لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ) أى : يزلقونك بأبصارهم وقت سماعهم القرآن ؛ وذلك لشدة بغضهم وحسدهم لرسول الله حين سماعه (وَيَقُولُونَ) لغاية حيرتهم فى أمره – عليه الصلاة والسلام – ونهاية جهلهم بما فى القرآن من عجائب الحكم وبدائع العلوم ولتنفير الناس منه : (إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) أى : ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأُ القرآن ، أى : حكموا بجنونه لسماعهم القرآن منه وهم يعلمون أنه أعقل الناس وأحكمهم ، وحيث كان مدار حكمهم الباطل ما سمعوا منه ﷺ من القرآن ردَّ – سبحانه – ذلك ببيان علو شأن القرآن وسطوع برهانه فقال : (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) .

٥٢ – (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) :

الأسلوب يفيد بطلان قولهم وتعجيب السامعين من جرأتهم على التفوه بتلك الفرية العظيمة

أى : يقولون ذلك والحال أنَّ القرآن ذِكْرٌ للعالمين ، أى : تذكير لهم وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أُمور دينهم ، فكيف يحكم على من أُنْزِل عليه ذلك بالجنون وهو مطلع على أسراره طُرًّا ، ومحيط بجميع حقائقه خبرًا ، وقيل : معنى الذكر : الشرف والفضل لقوله تعالى : «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ»(١) لِما فيه من الاعتناء بما ينفعهم .

وقيل : الضمير (هُوَ) لرسول الله ﷺ وكونه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مذكرًا وشرفًا لجميع العالمين لاريب فيه ما

(والله أعلم)

(١) سورة الزخرف من الآية ٤٤

سورة الحاقة

هذه السورة الكريمة مكية وآياتها إحدى وخمسون آية . والدليل على أنها نزلت فى مكة المكرمة ما أخرجه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : خرجت أتعرض لرسول الله ﷺ قبل أن أسلم فوجدته قد سبقنى إلى المسجد ، فوقفت خلفه فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أعجب من تأليف القرآن وقلت : هذا والله شاعر ، فقال الرسول : (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ) قلت : كاهن ، فقال : (وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ...) إلى آخر السورة ، فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع .

مناسبة هذه السورة لما قبلها :

جاء فى سورة (نون) ذكر يوم القيامة مجملًا فى قوله تعالى : (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ) فبيّن - سبحانه - فى هذه السورة الكريمة نبأ ذلك اليوم وشأنه العظيم ، وذكر أحوال أمم كذبوا رسلهم - عليهم السلام - وما أصاب هؤلاء الأقوام بسبب ذلك التكذيب من التنكيل والعذاب ؛ ليزدجر ويرتدع المكذبون المعاصرون له - عليه الصلاة والسلام - .

بعض مقاصد السورة :

١ - بدأت بذكر صفة القيامة على صورة تبعث فى النفوس الهيبة والخوف والفزع منها قال تعالى : (الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ) .

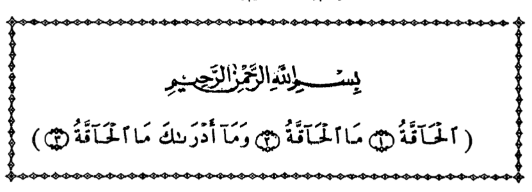
٢ - تحدثت عن أقوام من السابقين - عاد وثمود وفرعون ومن قبله وقوم لوط - وقد بلغوا فى البغى والطغيان غايته - قد نكل بهم فأبادهم وجعل بعضهم أثرًا بعد عين ، وبعضًا آخر ليس لهم من باقية ولا أثر .

٣ - جاء فيها ذكر بعض نعم الله على الإنسان وأنه نجّاه يوم لا عاصم من أمر الله إلّا من رحم ، وذلك للتذكرة والاعتبار ، قال تعالى : (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً) .

٤ ـ عرضت بعد ذلك لذكر أهوال قيام الساعة : من النفخ فى الصور ، ورفع الأرض والجبال وتفتتها ، وانشقاق السماء وتداعيها ، ووقوف الملائكة على جوانبها ، إلى غير ذلك من الأهوال والأحداث الجسام .

٥ ـ عرضت السورة لمآل من فاز ونجا وأوتى كتابه بيمينه ، وبينت فرحه وافتخاره بذلك قال تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ) كما أظهرت عاقبة من بار وهلك وأوتى كتابه بشماله ، وأوضحت حسرته وندمه حيث لا ينفع ذلك ، قال تعالى : (وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ) .

وفى ختام هذه السورة الكريمة جاء التأكيد على أن القرآن الكريم من عند الله وليس شعرًا ولا كهانة ، بل إنه تنزيل من رب العالمين ، وأن محمدًا ﷺ لو افترى وتقول على الله شيئًا لأخذ الله بيمينه وقطع نياط قلبه ، فما يستطيع أحد أن يمنعه من تنكيل الله به ، وكانت نهاية الختام بيان أن القرآن يُذَكر المتقين فينتفعون ويعملون بما فيه ، وأنه ـ سبحانه ـ يعلَم المكذبين فيجازيهم على ما اقترفوا وقدموا . ثم كان الأمر منه ـ سبحانه ـ لرسوله أن ينزهه عمَّا لا يليق به : (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) .



المفردات :

(الْحَاقَّةُ) : من حَق : إذا ثبت ووجب ، والمراد بها القيامة .

التفسير

١ ، ٢ ـ (الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ) :

الحاقة هى القيامة : وسميت بهذا الاسم لأنها الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجىء ، فهى آتية

لا ريب فيها ، أو هي التي تثبت فيها الأمور الحقة من الحساب والثواب والعقاب ، أو التي تعرف بها الأمور على الحقيقة .

وافتتحت السورة الكريمة بذكر القيامة بهذا الأسلوب ليزيد الله المؤمنين إيمانًا بها ؛ لأنهم يعلمون أنها الحق الثابت الذى لا يتغير ، وإن كانوا مشفقين منها وخائفين من وقوعها ، كما أن هذا النسق البديع يقطع بأن الذين يجادلون ويمارون فى وقوعها أو يتشككون فى ذلك لفى بعد عن الحق وتجافٍ عن الصواب ، قوله : (مَا الْحَاقَّةُ) استفهام أريد به التعظيم والتفخيم والأصل : الحاقة ما هى؟ أىْ : أىّ شىء هى فى صفتها وحالها؟ فوضع الظاهر (الْحَاقَّةُ) موضع المضمر تعظيمًا لشأنها وتهويلًا لأمرها .

٣ – (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ) :

هذا أيضًا استفهام أريد به التعظيم والتفخيم ، أى : أى شىء أعلمك بذلك اليوم ؟

يعنى أنك لا علم لك بحقيقتها ومدى عظمها وشدة هولها ؛ إذ إنها فى العظم والشدة بحيث لا يصل إلى ذلك علم أحد ولا وهمه ، وكيفما قدرت حالها فهى أعظم وأشد من ذلك .

هذا والنبى ﷺ كان عالمًا بالقيامة ، ولكنه لمّا لم يعاينها ولم يشاهدها فكأنه ليس عالمًا بها ، قال يحيى بن سلام : بلغنى أن كل شىء فى القرآن (وَمَا أَدْرَاكَ) فقد أراه الله إيّاه ، وعلمه ، وكل شىء قال : (وَمَا يُدْرِيكَ) فهو ممّا لم يُعَلِّمه ، كما روى عن سفيان بن عيينة : كل شىء قال فيه : (مَا أَدْرَاكَ) أُخبر به ، وكل شىء قال فيه : (وَمَا يُدْرِيكَ) فإنه لم يخبر به . – ذكره القرطبى – .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾)

المفـــردات :

(الْقَارِعَةِ) : القيامة ؛ سميت بذلك لأنها تقرع الناس بالأفزاع والأهوال التى تحدث فيها .

(الطَّاغِيَةِ) : الواقعة المجاوزة للحدود ، وهى الصيحة أو الرجفة ، وقيل غير ذلك .

(بِرِيحٍ صَرْصَرٍ) : شديدة الصوت ، من الصَّر ، أو شديدة البرد ، من الصِّر .

(عَاتِيَةٍ) : شديدة العصف والعتوّ فلايستطيع أحد ردها .

(حُسُومًا) : نحسات مشئومات حسمت وقطعت كل خير ، أو متتابعات ، وقيل غير ذلك .

(صَرْعَى) : هلكى لاحراك بهم .

(أَعْجَازُ نَخْلٍ) : أصول نخل قد تآكلت وخلت أجوافها ..

(الْمُؤْتَفِكَاتُ) : المنقلبات ، وهى قرى قوم لوط – عليه السلام – التى رفعها جبريل وقلبها هى ومَن فيها .

(الْخَاطِئَةِ) : القبيحة الشائهة .

(رَابِيَةً) : زائدة فى الشدة .

(طَغَى الْمَاءُ) : تجاوز حده حتى علَا على أعْلَى الجبال .

(الْجَارِيَةِ) : سفينة نوح ـ عليه السلام .

(تَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) : تحفظها أذن من شأنها أن تحفظ ما سمعت به .

التفسير

٤ ـ (كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ) :

لما ذكر الله ـ سبحانه ـ الحاقة وبين خطرها وعظم شأنها أتبع ذلك بذكر من كذب بها من الأمم السابقة ، مع بيان ما حل بهم من النكال والعذاب بسبب تكذيبهم وذلك تذكيرا لأهل مكة وتخويفاً لهم من عاقبة ماهم عليه من العناد والتكذيب .

والقارعة : هى التى تقرع الناس وتخيفهم وتفزعهم ، وتقرع السماء بالانشقاق ، والجبال والأرض بالدك والنسف ، والنجوم بالطمس والسقوط ، وجاءت (القارعة) موضع الحاقة أو ضميرها زيادة فى وصف شدتها وتهويل أمرها ، كذبت ثمود قوم صالح ـ عليه السلام ـ وكذبت عاد قوم هود ـ عليه السلام ـ بهذا اليوم .

٥ ـ (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ) :

هذا بيان لما سبق وتفصيل لما أجمل ، وذلك بذكر ما حاق ونزل بهؤلاء وأولئك من العذاب فأخبر ـ سبحانه ـ أن ثمود قد أهلكهم الله بالطاغية ، وهى الواقعة المجاوزة للحد فى الشدة والقوة ، وهى الصيحة التى زادت وتجاوزت كل الصيحات ، وقال بعضهم : إنها الرجفة والزلزال المسبب عن الصيحة ، وقيل : إن المراد من الطاغية هو ذلك الرجل الذى أقدم على عقر الناقة واسمه قُدار بن سالف ، وقد أهلكهم الله جميعاً لأنهم رضوا بفعله ومالأوه .

٦ ـ (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ) :

وهذا نوع آخر من العذاب أنزله الله على عاد قوم هود ـ عليه السلام ـ لما كذبوا رسولهم واستهانوا به وقالوا له : « إن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوٓءٍ »[1] فأهلكهم الله بريحٍ شديدةِ الصوت ، أو بريحٍ باردةٍ[2] كأنها التى كرر فيها البرد وكثر حتى تحرق بشدة بردها ، وهذه الريح هى الدَّبُور ، ففى الحديث الذى أخرجه البخارى ومسلم يقول ﷺ : « نُصرتُ بِالصَّبا وأُهلكَتْ عادٌ بِالدَّبُورِ » والمراد من وصفها بالعتو أنها قد بلغت منتهاها ووصلت غايتها فى القوة والشدة ، أو عتت على عاد فلم يقدروا على ردّها بحيلة من استتار ببناءٍ أو استناد إلى جبل أو اختفاءٍ فى حفرة ؛ فإنها كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكهم .

٧ ـ (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) :

هذا بيان لكيفية إهلاكهم بالريح ، أى : سلط الله تلك الريح وأرسلها عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعات دون فتور أو انقطاع حتى قطعت دابرهم واستأْصلت شأْفتهم ، أو أن تلك الليالى والأيام كانت نحسات مشئومات عليهم ، وقيل : إنها هى أيام العجوز وإنما سميت بذلك لأن عجوزا من عاد توارت فى سرب فانتزعتها الريح فى اليوم الثامن فأهلكتها ، وقيل : هى أيام العجز وهى آخر الشتاء فترى وتبصر يامن تتأَتى منك الرؤْية ـ إن كنت حاضرًا حينئذ ـ ترى هؤُلاءِ القوم فى تلك الليالى والأيام ، أو فى مهاب الريح موتى وهلكى ، يشبهون ويماثلون أُصول نخل خالية الأَجواف لاشىء فيها ؛ لأَن الريح تسلطت عليهم فكانت تدخل أجوافهم فتصرعهم وتخرج أحشاءهم ، أو خاوية بمعنى بالية ؛ لأَنها إذا بليت خلت أجوافها ، فشبهوا بعد أن هلكوا بالنخل الخاوية ، وتشبيههم بأَعجاز النخل يشعر بأَنهم كانوا عظاماً فى خلْقِهِمْ وأجسامهم .

---

(١) من الآية ٥٤ من سورة هود .

(٢) الصر ـ بالفتح ـ : مصدر (صرصرته) إذا شددته ، والصر ـ بالكسر ـ : البرد .

٨ - (فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ) :

أى : فهل ترى وتبصر لهم من بقية ؟ أو من نفس باقية ؟ أو من بقاء؟! .

وذهب قوم إلى أن هؤلاء القوم لم يبق من نسلهم أحد واستدل بهذه الآية على قوله .

٩ - (وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ) :

أى وجاء فرعون - ذلك الجبار الطاغى - ومن سبقه من الأمم التى كفرت كثمود وعاد ومن تبعهما من الأعوان والجنود ، وجاء أيضاً أهل تلك القرى الذين كذَّبوا نبى الله لوطا - عليه السلام - فكفأ وقلب جبريل - عليه السلام - تلك القرى ومن فيها ، جاء هؤلاء وأولئك جميعاً بالفعلة ذات الخطأ الجسيم والإثم العظيم .

١٠ - (فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً) :

بيَّن الله فى تلك الآية ذلك الخطأ الشديد والفعلة الشائنة المنكرة وأبان عقوبتها ، بينها - سبحانه - بأنها كانت عصيان كل أمة لرسولها حيث لم ينتهوا عما نهاهم عنه مما كانوا يفعلونه من ألوان القبائح وضروب الفواحش ، فأنزل الله بهم من العذاب الشديد ما يتوافق ويتناسب مع قبح أفعالهم وشناعة عصيانهم ؛ فأخذهم أخذة زائدة شديدة .

١١ - (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَةِ) :

هذا بيان لفضل من الله ومنة على المؤمنين ، وزجر وتهديد للكافرين ، أى : إننا وقت أن طغى الماء وتجاوز حده المعتاد حتى علا وارتفع فوق كل شىء ، وذلك بسبب إصرار قوم نوح - عليه السلام - على ضروب المعاصى والكفر ومبالغتهم فى الاستهزاء به ، وفى تكذيب ما جاء به من الأحكام والشرائع التى من جملتها أخبار وأحوال يوم القيامة ، إننا بقدرتنا - وتفضلا منا - جعلناكم ذرية من نجا من الغرق بسبب إيمانهم بالله وطاعتهم لنبيه نوح - عليه السلام - ورفعنا آباءكم وأنتم فى أصلابهم فوق الماء إلى انقضاء أيام الطوفان ، ورفعنا آباءكم فى السفينة الجارية بأمرنا وحفظنا ، وأغرقنا الكافرين ببغيهم وعصيانهم .

١٢ - (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) :

أى : لنجعل تلك الفعلة - وهى إنجاء المؤمنين وإغراقُ الكفرة - عظة وعبرة لكم ، ولكى تحفظها فى نفسها وتسمعها وتعمل بها أذن من شأنها أن تحفظ وتعى ما ينبغى حفظه ، وذلك بأن تتفكر فيه وتتذكره وتشيعه ولا تضيعه بترك العمل به ، وعن قتادة : الواعية : هى التى عقلت عن الله - تعالى - وانتفعت بما سمعت من كتاب الله - عز وجل - .

وجاء قوله تعالى : (أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) على الإفراد والتنكير للإشعار بأن الذين يعون ويعقلون ما يسمعون ويعملون به هم قلة فى هؤلاء القوم ، ولتوبيخ النَّاس ولومهم بقلة من يعى منهم ، وللدلالة - أيضاً - على أن الأُذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهى المكرمة عند الله ، وأنَّ ما سواها لا يلتفت إليهم وإن امتلأ العالم بهم .

(فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾)

المفـــردات :

(فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً) : فضرب بعضها ببعض حتى اندقت وتفتتت .

(وَانشَقَّتِ السَّمَآءُ) : انصدعت بعضها عن بعض .

(وَاهِيَةٌ) : مسترخية ساقطة القوى ضعيفة .

(عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا) الأرجاء : جمع رجًى ، وهو الجنب ، أى : على جوانبها .

التفسير

١٣ - (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ) :

هذا شروع فى بيان نفس الحاقة وكيفية وقوعها إثر بيان عظمة شأنها بإهلاك مكذبيها والمراد من النفخة الواحدة - هى نفخة الملك فى البوق - وقد أكدها ههنا بأنها واحدة لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ولا يحتاج إلى تكرار ، والأولى أن يقال : إنها النفخة الأولى التى عندها يحصل خراب العالم . قال الإمام الفخر الرازى : فإن قيل : لماذا قال بعد ذلك : (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ) والعرض إنما يكون عند النفخة الثانية ؟ قلنا : جعل اليوم اسماً للحين الواسع الذى تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب ؛ فلذلك قال : (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ) كما تقول : جئتك عام كذا ، وإنما كان مجيئك فى وقت واحد من أوقاته . ا هـ .

١٤ - (وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً) :

أى : رفعت الأرض والجبال من أماكنها إما بالزلزلة ، أو بريح بلغت من قوة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال ، أو بملك من الملائكة ، أو بقدرة الله من غير سبب[1] فضربت الأرض والجبال بعضها ببعض ضربة واحدة حتى تندق وتتفتت وتصير كثيبا مهيلا : أى ، رملا رخوا ليناً بعد أن كانت قوية صلبة متماسكة ، وقيل : تتفرق أجزاؤها كما قال - سبحانه - « هَبَاءً مُنبَثًّا »[2] وقيل : المراد فبسطتا بسطة واحدة وسويتا فصارتا أرضاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا : أى ، لا تبصر فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً .

١٥ - (فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) :

أى : فيوم إذ حدث ذلك من النفخ فى الصور ودك الأرض والجبال نزلت النازلة وقامت القيامة الكبرى .

١٦ - (وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ) :

أى : وتفطرت السماء وتميز بعضها عن بعض ، فهى فى هذا اليوم مسترخية ساقطة القوة ، وذلك بعد أن كانت محكمة متماسكة .

---

(١) ذكر ذلك الإمام الرازى.

(٢) الواقعة ، من الآية : ٦ .

١٧ ، ١٨ـ (وَالْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ) :

أى : والملائكة بعدانشقاق السماء وتداعيها ـ وهى مسكنهم ـ يقفون على جوانبها وأطرافها فزعين خائفين من عظمة الله ذى الجلال ، ومن هول ذلك اليوم ، ويحمل عرش الرحمن ـ جلّ وعلا ـ ثمانية من الملائكة العظام ، أو ثمانية صفوف ، ويكون العرش وحملته فوق الملائكة الذين على أرجاء وأطراف السموات ، وقيل : إن حمل العرش ـ يومئذ ـ يكون فوق ظهورهم أو على رءوسهم وليس بأيديهم .

وفى هذا اليوم العصيب الرهيب تعرضون على ربكم للمحاسبة والمساءلة ، قيل : يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فآخذ بيمينه وآخذ بشماله . (لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ) أى : غير خاف عليه ـ عز وجل ـ سر من أسراركم لا فى هذا اليوم ولا فى غيره ، وقد جاء النظم الكريم على هذه الصورة لمزيد تهديدهم ، أى : تعرضون على من لا يخفى عليه شئ أصلا ، أو المراد لا يخفى يوم القيامة ما كان مستترا فى الدنيا بستر الله عليكم ؛ فإنه ـ سبحانه ـ فى هذا اليوم يظهر أحوال المؤمنين للملأ فى عرضات القيامة ، فيتكامل سرورهم ، ويبدى ـ جل شأنه ـ أحوال أهل العذاب فيظهر بذلك خزيهم وفضيحتهم ، وهو المراد من قول الله تعالى : « يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ * فَمَالَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ »[1] .

روى أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ؛ فإنه أخف عليكم فى الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر .

(١) سورة الطارق ، الآيتان : ٩ ، ١٠

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾)

المفـــردات :

(هَاؤُمُ) : خذوا .

(قُطُوفُهَا) : جمع قِطف ، وهو مايجتنى من الثمر .

(دَانِيَةٌ) : قريبة التناول .

(بِمَا أَسْلَفْتُمْ) : بما قدمتم من الأعمال الصالحة فى الدنيا[1] .

(الْقَاضِيَةَ) : القاطعة لأمرى ولم أُبعث بعدها .

(هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ) : بطلت حجتى التى كنت أحتج بها فى الدنيا ، وقيل غير ذلك .

١٩ ــ (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ) :

هذا توضيح وتبيين لما سبق إجماله فى قوله :(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ) إذ بالعرض تظهر أحوال المؤمنين وغيرهم ، فأما الفريق المؤمن الذى يأخذ كتابه بيمينه فيعلم ــ آنئذ ــ

(١) جاء فى القاموس المحيط : السلف ــ محركة السين ــ : اسم من الإسلاف ، ثم قال : وكل عمل صالح قدمته .

أنه من الناجين الفائزين بالنعيم ؛ لأن اليمين عند العرب من دلائل الفرح ، والمراد بالكتاب هنا : ماكتبته الملائكة وسطرته على العبد من الأعمال خيرها وشرها ، أى فيقول كل واحد من هؤلاء السعداء لغيره أو لأهل قرابته - سرورا بنجاته - : (هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا كِتَابِيَهْ) أى : خذوا كتابي هذا فاقرءوه حتى ينالكم مانالنى من السرور والفرح ؛ ليكمل أنسى ويزداد ابتهاجى وحبورى .

٢٠ - (إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ) :

أى : إنى كنت فى دنياى أعمل الخير وأحسن القصد وأتقن العمل وأرجو منه - سبحانه - أن يجعل عملى خالصا لوجهه غير مدخول برياء أو سمعة ، وإنى ظننت فى الدنيا أن ربى - جل شأنه - سيحاسبنى يوم القيامة حسابا يسيرا ، وقد حاسبنى - تبارك وتعالى - كما ظننت ؛ فالله - جلت قدرته - عند ظن عبده به ، وقيل : المراد بالظن هنا اليقين والعلم وذلك بناء على أن الظاهر من حال المؤمن تيقن أمور الآخرة ، ولكن لمّا كان فيها من التفاوت كسهولة الحساب وشدته - مثلا - عبر عن العلم بالظن للإشعار والإشارة إلى ذلك .

٢١ - (فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ) :

أى : إن هذا الفريق صاحب اليمين فى عيشة وحياة قد رضى بها تمام الرضا واطمأن إليها كمال الاطمئنان ؛ وذلك لدوامها وعظمها وخلوصها من الشوائب والأكدار حتى كأن تلك العيشة نفسها راضية ، وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ : «أنَّهمْ يعِيشون فَلَا يمُوتون أبدا ويصِحُّون فلَايمْرضون أبداً ، وينْعمون فلَا يروْن بؤْسًا أبداً ، ويشِبُّون فَلَا يَهْرمُونَ أَبَداً » .

٢٢ - (فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ) :

أى : يعيش هذا الفريق تلك العيشة الراضية ويحيا هذه الحياة الهانئة فى جنة رفيعة القدر عظيمة المنزلة ، وهى - كما جاء فى تفسير ابن كثير - رفيعة قصورها ، حسان حورها ، نعيمة دورها ، دائم حبورها . هذا والجنة فى ذاتها عالية فهى فوق السموات غير أن منازل بعضهم فيها فوق منازل الآخرين ، وذلك لتفاوت درجات أهلها .

٢٣ - (قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ) :

أى : ثمارها قريبة التناول يدركها ويأخذها القائم والجالس والمضطجع ، أو سهلة التناول ، أخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال : دنت فلا يرد أيديهم عنها بعدٌ ولا شوك :

٢٤ - (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) :

يقال لهم ذلك من قبل الله تعظيما لشأنهم وإدخالا للسرور فى قلوبهم ، أى : كلوا أكلا سائغا لذيذا بلا عناء ولامشقة ، واشربوا شربا رويًا لاظمأ بعده ، ولا يعقب هذا الأكل والشرب شائبة من تنغيص أو ضرر ، وذلك بسبب ماقدمتم من الأعمال الصالحة فى أيامكم التى خلت ومضت وهى أيام الدنيا ، وهذا الجزاء جاء منه - سبحانه - تفضلا عليهم وإكراما لهم ، وإحسانا إليهم ، فقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اعملوا وسدِّدوا وقارِبُوا واعلموا أن أحداً منكم لن يدخلَ بعمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسولَ الله ؟ قال : « ولا أنا إلاَّ أن يتغمدَنى اللهُ برحمةٍ منه وفضل » ، وقيل المراد من الأيام الخالية هى أيام الصيام التى تقلصت فيها شفاههم وغارت أعينهم وخمصت وجاعت بطونهم من ترك الطعام والشراب امتثالا لأمر ربهم وابتغاء لوجهه - سبحانه - فعوضهم عما فاتهم فى صومهم .

ولما بين الله حال أصحاب اليمين ومانالوه من سعادة أبدية فى الدار الآخرة أردفه وأعقبه ذكر أصحاب الشمال ومايقاسونه من ضروب الخزى وألوان العذاب وصنوفه ، فقال :

٢٥ - (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ) :

أى : أن هذا الصنف الذى يعطى كتابه بشماله - وهو أمارة النحس وشؤم الطالع - يقول - وقد ملأته الحسرة وجلله الخزى والذل - : ياليتنى لم أعط كتابى وصحيفة أعمالى التى تذكرنى بقبائح أفعالى ، إنه من شدة خجله وفرط هوانه يتمنى لو عُذِّب بالنار دون أن يعرض عليه كتابه حتى لاينااله ذلك العذاب الروحانى الذى هو أشق وأشد من العذاب الجسمانى .

٢٦ - (وَلَمْ أَدْرِ مَاحِسَابِيَهْ) :

أى :ولم أعرف شيئا عن حسابى؛ إذ لاطائل ولانفع من وراء ذلك ؛ فكتابه لم يضم ماينجيه وليس فيه مايغنيه من عذاب الله ، إنه قد حوى وشمل كل قبيح يشينه ، وسطر فيه مايهلكه ويرديه .

٢٧ - (يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ) :

أى : يقول - متمنيا ولاينفع التمنى - ليت الموتة التى مُتُّها وذقتها فى الدنيا كانت هى القاطعة لأمرى ولم أبعث بعدها ولم أنل وألق ما ألقاه من العذاب المهين ، أو ليت هذه الحالة - وهى حالة مطالعته لكتابه يوم القيامة- كانت الموتة التى قضت علىّ ؛ لأنه قد صار إلى أمر أشد إيلاما ومرارة من الموت فتمناه عنده ، وقد قيل : أشد من الموت مايتمنى الموت عنده .

٢٨ - (مَآ أَغْنَى عَنِّى مَالِيَهْ) :

أى :لم ينفعنى ولم يغن عنى ماكان لى فى الدنيا من المال الوفير فضةوذهبا وخيلا مسومة وأنعاما وحرثا وخدما وحشما ،فقد وفدت وجئت إلى ربى فردا وحيدا لانصير لى ولا معين .

٢٩ - (هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ) :

أى : بطلت حجتى ، وضاع دليلى ،وضل برهانى الذى كنت أحتج به فى الدنيا على محمد ﷺ حيث كذبتنى الجوارح وشهدت على بالشرك والمعاصى !! أو ذهب ملكى وتسلطى وبطشى وجبروتى وبقيت ذليلا مهينا .

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾)

المفـــردات :

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ) : شدُّوه بالأغلال .

(ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ) أى : لاتدخلوه إلا النار يقاسى حرّها .

(فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً) : قياسها ومقدار طولها .

(فَاسْلُكُوهُ) : فأدخلوه فيها ، أى : تلف على جسده ، وقيل غير ذلك .

(وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) أى : لايحث ولايحرض غيره على إطعام المساكين .

(حَمِيمٌ) : قريب مشفق يرق ويحترق قلبه له ، أو يحميه مما نزل به .

(غِسْلِينٍ) : هو الدم والماء الذى يسيل من لحوم أهل النار .

(الْخَاطِئُونَ) : جمع خاطىء ، وهو الذى يتعمد فعل الذنب ، وهم المشركون .

التفسير

٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ـ (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ) :

هذا تفصيل لما يلقاه الأشقياء يوم القيامة حيث يأمر ـ سبحانه ـ الزبانية بأن يأخذوا كل شقىّ فيشدوه بالأغلال والقيود ويجمعوا بها يده إلى عنقه ، ثم يأمرهم بعد ذلك ألّا يجعلوه إلا فى الجحيم وفى النار التى اشتد تأججها وزاد سعيرها وأُوارها (ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ)

وهى حلق منتظمة كل حلقة منها فى حلقة ، أى : لاتدخلوه إلا فى سلسلة مقدارها سبعون ذراعا ولفُّوها عليه حتى تنتظمه وتضمه ، وهو فيما بينهما مرهق مضيق عليه لايقدر على الحركة ، وقيل : إن المعنى لا تدخلوا السلسلة إلاّ فيه ، ويكون المعنى أن السلسة هى التى تسلك وتدخل فيه ، وهو مروى عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أنها تدخل فى دبره حتى تخرج من فمه أو من منخريه ، وعند الله علم مقدار هذا الذراع ، وجعلها سبعين ذراعا لإرادة الوصف بالطول لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد ، ونظير ذلك قوله تعالى : « إن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً »[1] يريد مرات كثيرة .

٣٣ ، ٣٤ ــ (إِنَّهُ كَانَ لَايُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ * وَلَايَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) :

هذا بيان للسبب الذى استحق من أجله هذا العذاب ، أى : استوجب واستحق هذا النكال لأنه كان فى الدنيا مستمرا وقائماً على الكفر بالله العظيم ، وجاء وصفه ــ سبحانه ــ بالعظيم ليشعر ذلك بعظم وشدة عذابه ــ جل شأنه ــ واستحق العذاب أيضا لأنه لايحث ولايحرض غيره على طعام المسكين فضلا عن أن يبذل ماله ، فهو يجمع بين البخل بماله والشح على المساكين من مال غيره ، وقال صاحب الكشاف : وفى قوله تعالى : (وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) دليلان قويان على عظم الجرم فى حرمان المساكين أحدهما عطفه على الكفر وجعله قرينا له ، والثانى : ذكر الحض دون الفعل ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل ؟! وعن أبى الدرداء : أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ، وكان يقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع نصفها الآخر ؟! .

٣٥ ــ ٣٧ ــ (فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ) :

أى : فليس له فى الآخرة قريب يدفع عنه ويحزن عليه لأنهم يتحامونه ويفرون منه كقوله تعالى : « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً » والغسلين : هو غسالة أهل النار وما يسيل من أبدانهم من القيح والصديد والدم ، أى : ليس لهؤلاء الأشقياء التعساء طعام يطعمونه إلا هذا الصنف

(١) سورة التوبة من الآية ٨٠

البشع المنتن الذى لايأكله أحد إلّا هؤلاء القوم الذين كانوا يتعمدون ويقصدون فعل الآثام والذنوب ، ولذا لايدخلون تحت عفو الله وغفرانه لأنهم جاهروا الله بالمعاصى ، وقد قال الرسول ﷺ : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين » :

(فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾)

المفـــردات :

(فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) : فأقسم بالمشاهدات المرئيات ، والمغيبات المستورات ، وقيل غير ذلك .

(تَقَوَّلَ) : افترى وادّعى .

(ٱلْوَتِينَ) : عرق فى القلب إذا قُطع مات صاحبه .

التفسير

بعد أن بين – سبحانه – أن الساعة واقعة لا محالة ، وأن الناس جميعا محاسبون على أعمالهم ، وذكر – جلت قدرته – أحوال السعداء والأشقياء فى هذا اليوم – بعد أن بين ذلك – ختم الكلام فى هذه السورة الكريمة بتعظيم القرآن فقال :

٣٨ ، ٣٩ - (فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) :

أى : فأُقسم وأحلف بما تبصرونه وتشاهدونه مما خلق الله وأبدعه وجعله دليلا على كمال قدرته وعظيم إتقانه وإبداعه ، وأُقسم بما لا تبصرونه مما خفى واستتر عنكم من مثل : ذاته - سبحانه - وأسرار قدرته وبعض مخلوقاته التى لم يأْذن لكم فى الاطلاع عليها ، وما خفى ودق من نعمه الباطنة . وكلمة (لَا) على هذا فى قوله :(فَلَا أُقْسِمُ) لتأْكيد القسم وليست للنفى ، وقيل : إنها نافية للقسم ، كأنه قال : لا أُقسم على أن القرآن قول رسول كريم لأن الأمر لوضوحه يستغنى عن القسم والحلف عليه .وقيل :(لَا) لكلام سبق ،أى : ليس الأمر كما يقوله المشركون ، ثم ابتدىء بعد ذلك بالقسم .

٤٠ - (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) :

أى : إن القرآن الكريم يقوله ويتكلم به رسول من عند الله ،أى : يبلغه عن الله وليس لهذا الرسول بعد ذلك ولاقبله شأن فيه ، والظاهر أن المراد من الرسول فى الآية الكريمة هو سيدنا محمد ﷺ لأنه هو الذى كان يصفه قومه بالشعر والكهانة وقيل هو جبريل - عليه السلام - .

٤١ - (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ) :

أى وليس القرآن بقول شاعر لأنه يباين ويختلف عن ضروب الشعر وأغراضه ؛ إذ إنه التشريع المحكم ، والقول الفصل ، والجد الذى ليس بالهزل ، أما الشعر فإنه يخوض فى الأُمور كلها جدها وهزلها ،فالشعراء فى كل واد يهيمون ، ويقولون مالا يفعلون (قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ) أى :أنهم لايؤمنون أصلا،فالعرب تقول : قلَّما يأْتينا . وهم يريدون أنه لا يأْتينا ، أو أنهم يؤمنون ولكنهم سرعان مايرجعون عن إيمانهم ، وذلك كما حدث من الوليد بن المغيرة فإنه بعد أن وصف القرآن الكريم ونعته بأنه ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وأنه ليعلو ولا يُعلى عليه ... إلى آخر ماقال ، رجع واستكبر فقال : إن هذا إلَّا سحر يؤثر .

وقال الفخر الرازى فى قوله تعالى : (قَلِيلاً مَّاتُؤْمِنُونَ) : إلَّا أنكم لاتقصدون الإيمان فلذلك تعرضون عن التدبر ، ولو قصدتم الإيمان لعلمتم كذب قولكم : إنه شاعر لمفارقة هذا التركيب ضروب الشعر .

٤٢ - (وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّاتَذَكَّرُونَ) :

أى : ليس القرآن - أيضا - بقول كاهن ؛ لأن الكهان تلهمهم وتمدهم الشياطين بالغى والضلال وقد نزل القرآن بسب الشياطين وشتمهم ؛ فلا يعقل أن يكون من مدهم وإلهامهم غير أنكم أيها المكذبون لاتتذكرون كيفية نظم القرآن واشتماله على شتم الشياطين ولعنهم والتحذير منهم ، ولو تذكرتم ذلك لأدركتم أنكم تتخبطون فى أقوالكم وتكذبون أنفسكم .

٤٣ - (تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) :

أى : أن القرآن العظيم كلام رب العالمين ؛ لأنه تنزيله ، أما أنه ينسب قوله إلى جبريل - عليه السلام - فلأنه نزل به من عند الله ، أو أنه قول سيدنا محمد ﷺ فلأنه أنذر وبشر الخلق به ، فكل من جبريل - عليه السلام - ومحمد ﷺ لادخل له فى القرآن الكريم إلا بالنزول به من عند الله بالنسبة لأمين الوحى جبريل - عليه السلام - وبتبليغ ما أنزل عليه للناس كافة بالنسبة لرسولنا محمد ﷺ .

٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ -(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) :

أى : لو ادعى ونسب إلينا محمد من قبل نفسه شيئا لم نقله لمنعناه بالأخذ بيمينه ، وهذا تصوير للانتقام منه على أبشع صورة كما يفعل الجبابرة بمن يريدون التنكيل بهم ، من ذلك : بأن نسلبه قوته ، أو ننتقم منه بالحق بأن نقيض ونهىء له من يعارضه فيه ويبطل قوله حتى يظهر كذبه لئلا يشتبه الصادق بالكاذب ، ثم كانت عاقبته أننا نقطع العرق المتصل بقلبه حتى يقضى عليه ويموت (فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) أى : فلا يقدر أحد من الناس أن يحجزنا ويمنعنا ويحول بيننا وبينه فى أخذنا بيمينه ، أو فى قطعنا وتينه ؛ إذ ليس ذلك فى قدرة أحد أو فى إمكانه .

ولما لم يحدث من ذلك شىء كان محمد ﷺ رسولا من عند الله يبلغ عنه - سبحانه - إنذارا وتبشيرا ، وسميت الأقوال المفتراة المتقولة أقاويل تحقيرا لها وتصغيرا لشأنها ، كقولهم الأعاجيب والأضاحيك[1] .

(وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾)

المفـــردات :

(تَذْكِرَةٌ) : عظة وتذكير .

(لَحَسْرَةٌ) : لحزن وندامة عظيمة .

(حَقُّ ٱلْيَقِينِ) : عين اليقين : وقيل غير ذلك .

التفسـير

٤٨ - (وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) :

أى : وإن القرآن الكريم لتذكرة وعظة للمؤمنين الذين يخشون ربهم ويتقون المعاصى ، وخص - سبحانه - المتقين بذلك لأنهم هم المنتفعون بالقرآن العظيم .

٤٩ - (وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ) :

هذه الآية الكريمة وعيد شديد وتهديد للمكذبين ، أى : ونحن نعلم أن منكم من يكذب بالقرآن مع وضوحه وإعجازه ويزعم أنه شعر وكهانة وأساطير الأولين ، وسنجازى هؤلاء المفترين على الله الكذب بما يستحقونه من عقاب ونكال .

---

(١) عن الفخر الرازى .

٥٠ ـ (وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ) :

وإن هذا القرآن الكريم ليورث الكفار الأسف العظيم ويجلب لهم الندامة والحزن الشديد وذلك فى الآخرة إذا رأوا وشاهدوا ثواب المؤمنين به والقائمين على حدوده ، أو يصيبهم ذلك فى الدنيا عندما يشاهدون ماعليه المصدقون به من عز ومنعة ودولة وسلطان ، أوحين لم يقدروا على معارضته والإتيان بسورة من مثله عندما تحداهم بذلك .

٥١ ـ (وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ) :

أى : وإن القرآن العزيز لحق لابطلان فيه ، ويقين لاريب ولاشك فيه . ونقل الآلوسى عن بعضهم أنه قال : إن أعلى مراتب العلم حق اليقين ، ودونه عين اليقين ، ودونه علم اليقين ، فالأول كعلم العاقل الموت إذا ذاقه ، والثانى كعلمه عند معاينة ملائكته ـ عليهم السلام ـ والثالث كعلمه به فى سائر أوقاته .

٥٢ ـ (فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ) :

أى : فسبح الله بذكر اسمه العظيم تنزيها له وتقديسا عمّا لايليق به من السوء والنقائص ، وإبعادا لعظمته عما لايتفق وجلاله وسلطانه ، واشكره شكرا جزيلا على ما أوحاه إليك من هذا القرآن الرفيع القدر الجليل الشأن ، وما حباك به ـ سبحانه ـ وأعطاك من آلائه الوفيرة ونعمه العظيمة .

سـورة المعارج

مكية وآياتها اربع واربعون آية

صلة هـذه السورة بما قبلهـا :

هذه السورة الكريمة كالمتممة والمكملة لسورة الحاقة إذ إن كلاً منهما تعرض وتبين أحوال البشر يوم القيامة .

بعض مقاصد السورة :

١ ـ إنها ـ فى أولها ـ تنذر الكافرين بعذاب نازل وواقع بهم لا محالة .

٢ ـ إنها تصور يوم الحساب بأنه شاق وعسير على الكافرين فمقداره عليهم خمسون ألف سنة ، أما المؤمن فإن الله يخففه عليه حتى يكون أخف من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا .

٣ ـ تبين السورة فى بعض آياتها السماء يوم القيامة بأنها تكون بيِّنة الكدورة ، وأنها كعكر الزيت فى أسفل إنائه ، وأن الجبال تتفتت وتصير كالصوف المنفوش إذا طيرته الريح .

٤ ـ توضح السورة أن كل واحد يوم القيامة ينشغل بنفسه ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ ، وأن المجرم يتمنى لو كان بنوه وأهله ومن فى الأرض جميعًا تحت يده يبذلهم فى فداء نفسه ثم ينجيه ذلك من عذاب الله ومقته ولكن هيهات أن تكون له نجاة .

٥ ـ تبين الآيات أن الإنسان جبل وفطر على الحزن والجزع عند المصيبة والبلاء كما خلق على الشح والبخل عند النعماء والاستغناء ، ولكن الله تعبَّده [١] بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره ، وأرشده إلى ما يثبته ويصبره عند النوازل فلا يجزع ، وإلى ما يدفعه إلى البذل والعطاء إذا استغنى فلا يشح ولا يمنع ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ .

---

(١) تعبده : أى اتخذه عبدا ، والتعبد : التنسك .

٦ ـ تجيء الآيات بعد ذلك معلنة أن الله قادر على أن يهلك الكافرين المكذبين ويستبدل بهم قومًا أفضل منهم ؛ لأنه ـ سبحانه ـ لايفوته شيء ولايعجزه أمر أراده .

وفى ختام السورة يأمر الله رسوله ﷺ أن يترك هؤلاء الكفرة المكذبين ولا يلقى بالا إلى مايخوضون فيه من الباطل واللهو حتى يصيروا إلى يوم الحساب الذى يخرجون فيه من قبورهم مسرعين وقد خضعت وذلت أبصارهم واتجهت إلى الأرض فلا يرفعونها خجلًا وخزيًا فضلًا عمًّا يغشاهم ويجللهم من الذل والمهانة ، وهذا هو اليوم الذى هُدِّدوا به فى الدنيا ولكنهم كانوا يسخرون به ويكذبون ، وفى هذا اليوم يشاهدون جزاء عملهم وعاقبة تكذيبهم : (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾)

المفـــردات :

(سَأَلَ سَائِلٌ) : طلب ودعا داعٍ .

(وَاقِعٍ) : نازل وحاصل .

(دَافِعٌ) : مانع يردّه .

(الْمَعَارِجِ) : جمع معرج ، وهو المصعد ، أى : صاحب المصاعد والدرجات التى تصعد فيها الملائكة من سماء إلى سماء ، وقيل غير ذلك .

(وَالرُّوحُ) : هو جبريل ـ عليه السلام ـ .

التفسير

١، ٢، ٣، ٤ - (سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ واقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِّنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَآئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) :

أى : دعا داعٍ وطلب كافر من كفار مكة لنفسه ولقومه نزول عذاب، من قولهم : دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه ، والسائل هو النضر بن الحارث ، فإنه لمَّا خوَّفهم رسول الله ﷺ نزول العذاب قال - استهزاءً وإنكارًا - : « اللَّهُمَّ إن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[1] فكانت عاقبته العاجلة فى الدنيا - جزاء استخفافه واستهزائه - أن أُهلك يوم بدر فضلًا عما ينتظره يوم القيامة من نكال هو أشد وأنكى .

وقال بعضهم : هذا السائل هو رسول الله ﷺ وكان قد استعجل عذاب الكافرين ، فبيَّن الله له أن هذا العذاب واقع بهم ولا دافع له ، قالوا : والذى يشير إلى هذا التفسير قوله بعد ذلك : (فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا) وهذا يدل على أن ذلك السائل هو الذى أمره الله بالصبر الجميل .

وهذا العذاب نازل بالكافرين فى الآخرة لا محالة ، وواقع بهم سواءٌ طلب أو لم يطلب ولا يدفعه عنهم أحد ؛ لأنه من جهته - تعالى - وهو صاحب الدرجات والمصاعد التى تصعد فيها الملائكة والروح وهو جبريل - عليه السلام - أُفرد بالذكر لتميزه وفضله ، وقال مجاهد : الروح ملائكة حفظة للملائكة الحافظين لبنى آدم لا تراهم الحفظة كما لا نرى نحن حفظتنا ، وقيل : ملك عظيم الخلقة يقوم وحده يوم القيامة صفًّا ويقوم الملائكة كلهم صفًّا . وهؤلاء الملائكة والروح تعرج وتصعد من سماءٍ إلى سماءٍ إلى عرش الرحمن حيث تهبط منه أوامره - سبحانه - وقيل : المراد من المعارج هى الفضائل والنعم لأن لوجوه إنعامه وأياديه - جل شأنه - درجات وهى تصل إلى الناس على مراتب مختلفة فهم فى نعم الله عليهم متفاوتون .

---

(١) سورة الأنفال ، من الآية : ٣٢

وفى قوله : (مِنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَآئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) مايدخل الخوف والرهبة فى قلوب الكافرين ؛ إذ إن كل المخلوقات تحت قهر سلطانه ، والملائكة ـ ذلك الخلق العظيم ـ تصعد إليه فى معارج السموات « لَا يَعْصُونَ اللهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ »[1] فما أشد بطشه وما أعظم أخذه « إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ »[2] .

(فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) من سنى الدنيا : أى ، أن هذا العذاب سيكون فى يوم قدره خمسون ألف سنة وهو يوم الحساب إلى أن يستقر أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ، وإلَّا فيوم القيامة لا نهاية له ، ثم بعد ذلك ينتقل الكفار إلى نوع آخر من العذاب .

وهذا الطول وتلك الشدة تكون على الكافرين والعاصين فحسب ، أما المؤمنون فإن الله يخفف عليهم ، يدل على ذلك ما أخرجه الإمام أحمد وغيره عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : سئل رسول الله ﷺ عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « والذى نفسى بيده إنه ليُخفَّف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاةٍ مكتوبة يصليها فى الدنيا » .

(فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾)

المفــــردات :

(فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا) الصبر الجميل : هو ما لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله .

---

(١) سورة التحريم ، من الآية : ٦ (٢) سورة هود ، من الآية : ١٠٢

(كَالْمُهْلِ) :كالمعدن المذاب ، أو كعكر الزيت .

(الْعِهْنِ الْمَنفُوشِ) : كالصوف المتناثر ، أو المصبوغ الذى طيرته الريح .

التفسير

٥ ـ (فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا) :

أى : احبس نفسك يا محمد على تحمل أذى قومك ولا تضجر من استهزائهم وسخريتهم . أو فاصبر ولا تستعجل عذابهم الذى سألته لهم ؛ فإنه كائن ونازل بهم لا محالة ، والصبر الجميل : هو ما لا شكوى فيه لغير الله ، وقال بعضهم : إنه يكون معه صاحب المصيبة فى القوم بحيث لايدرى من هو .

٦ ، ٧ ـ (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا) :

أى :أن الكفار يرون العذاب الواقع بهم ، أو يرون يوم الحساب بعيدًا عن الإمكان ويعتقدون أن وقوعه محال ، أو أنه لايقع أصلًا وإن كان ممكنًا فى ذاته ، ونحن بإحاطتنا وعلمنا نراه قريبًا هيِّنًا فى قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر .

٨ ، ٩ ـ (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ) :

أى يقع هذا العذاب على هؤلاء المجرمين يوم تكون فيه السماء ـ بعد تشققها وتداعيها ـ قد تغير لونها من الخضرة إلى الحمرة .

والمهل : هو عكر الزيت فى أسفل إنائه ، أو هو مايذاب من المعادن .

والمراد يوم تكون السماء واهية وتصير الجبال متناثرة متطايرة فى الجو تشبه الصوف المنفوش ، وعن الحسن : تسير الجبال مع الرياح ثم تنهدّ ثم تصير كالعهن ثم تنسف فتصير هباء .

وقال صاحب الكشاف : المراد بالعهن المنفوش : هو الصوف المصبوغ ألوانًا ؛ لأن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، فإذا بُسَّت وطيرت فى الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح .

هذا هو شأن الله فى السموات والأرض ، أما حال الخلائق فى هذا اليوم فقد بينته الآيات التالية :

(وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾)

المفـــردات :

(وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا) الحميم : هو الصديق أو القريب المشفق ، قال الراغب : فكأنه الذى يحتد حماية لذويه .

(يُبَصَّرُونَهُمْ) : يرونهم ويعرفونهم .

(وَفَصِيلَتِهِ) : عشيرته الذين فصل عنهم .

(الَّتِى تُؤْوِيهِ) : تضمه انتماء إليها فى النسب ، أو يلجأ إليها ويتمسك بها فى النوائب .

التفســير

١٠ ـ (وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا) :

أى : ولا يسأل صديق أو قريب مشفق صديقاً أو قريباً كان يعطف ويحنو عليه ويحتد حماية له ، لايسأله عن شأنه وحاله ، وعدم السؤال إما لاشتغال كل أحد بنفسه فهو كقوله تعالى : « يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ »[١] وقوله : « لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »[٢] أو : ولا يسأل حميم حميماً شفاعة أو إحساناً إليه أو رفقاً به

(١) سورة الحج ، من الآية : ٢ (٢) سورة عبس ، من الآية : ٣٧

أو نصراً له لعلمه أنه لايجد ذلك عنده ، ونظرا إلى أنه قد يتبادر إلى الذهن أن عدم السؤال قد يرجع إلى أنه لا يرى بعضهم بعضاً فقيل : (يُبَصَّرُونَهُمْ) أى : يرونهم ويعرفونهم ولكنهم لتشاغلهم بأنفسهم لم يتمكنوا من تساؤلهم أو لأنهم لا يرون جدوى فى ذلك .

١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ – (يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ * وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ) :

أى : هذا المجرم الآثم الظالم الذى تناهى إجرامه بكفره بربه واستكباره عن عبادة مولاه يحب ويتمنى – فداء لنفسه من العذاب – أن يقدم أبناءه وزوجه وأخاه وعشيرته الخارج منها المتفرع عنها التى تؤويه وتضمه إليها إذا ألمت به ملمة أو نزلت به نازلة ، ويقدم أيضًا جميع من فى الأرض ، والمراد أن ذلك الكافر والمذنب يود لو يفتدى نفسه بهذه الأشياء ثم يؤدى ذلك إلى نجاته .

وجاءت (ثُمَّ) فى قوله تعالى : (ثُمَّ يُنجِيهِ) لاستبعاد الإنجاء ، يعنى يتمنى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده ويبذلهم فى فداء نفسه ثم ينجيه ذلك ، ولكن هيهات أن تكون له نجاة .

(كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾)

المفـــردات :

(لَظَى) : علم لجهنم منقول من اللظى بمعنى اللهب الخالص .

(لِلشَّوَى) : لجلدة الرأس ، وقيل : للأطراف وسيأتى .

(تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى) : تطلب من أعطى ظهره للحق وأعرض عن الطاعة للدخول فيها .

(وَجَمَعَ فَأَوْعَى) : جمع المال فجعله فى وعاء وكنزه ولم يؤد حقه[١] .

التفسير

١٥ ، ١٦ - (كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ) :

(كَلَّآ) : ردع وزجر للمجرم عن أن يود ذلك ، وتنبيه له على أنه لا ينفعه الافتداء ولا ينجيه من العذاب (إِنَّهَا لَظَىٰ) أى : إن النّار شديدة السعير عظيمة التلظى لا تأخذها رحمة ولا شفقة ولا هوادة فى أخذ المجرمين وتعذيبهم ؛ فتنزع وتقتلع أطرافهم أو جلدة رءوسهم تنزعها نزعاً فَتُبَتِّكها وتقطعها ثم تعاد ؛ قال تعالى : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ »[٢] .

١٧ ، ١٨ - (تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ) :

أى : تدعو جهنم وتطلب من أدبر فى الدنيا عن طاعة الله وتولى عن الإيمان ، تدعوهم بلسان حالها حيث هيأت لكل واحد من الكافرين جانباً وناحية منها يرجع إليها حتى كأن تلك المواضع تدعوهم وتحضرهم ، أو أن الله - سبحانه - يخلق لها لساناً تدعوهم به ؛ فتقول قولا صريحاً : إلىَّ يا كافر ، إلىَّ يامنافق ، ثم تلتقطهم التقاط الحب ، روى ذلك عن ابن عباس ، أو أن زبانية النّار وحراسها تدعوهم ، أو أن معنى (تَدْعُو) تهلك ، وذلك من قول العرب : دعاه الله ، أى : أهلكه ، ومنه : دعاك الله من رجل بأفعى .

(وَجَمَعَ فَأَوْعَى) أى : جمع المال واختزنه وكنزه وأحكم وكاءه وأوثق وعاءه ، ومنع حق الله فيه ؛ فلم يؤد الزكاة والحقوق الواجبة فيه ، وتشاغل به عن دينه ، وزها باقتنائه ، وتكبر وتجبّر فكان جموعاً منوعاً .

---

(١) قال الراغب : الوعى حفظ الحديث ونحوه ، يقال : وعيته فى نفسى قال تعالى : (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) والإيعاء : حفظ الأمتعة فى الوعاء ، قال : (وجمع فأوعى) .

(٢) سورة النساء من الآية ٥٦

* (إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥))

المفــــردات :

(هَلُوعاً) الهلع : شدة الجزع وسرعته عند مس المكروه ، وسرعة المنع عند حصول الخير ، من قولهم : ناقة هلوع : سريعة الجرى ، وهلع من باب فرح ، يقال : هو هلِع وهلوع .

(عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ) أى : مواظبون عليها مستمرون على أدائها لا يشغلهم عنها شاغل .

(فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ) أى : قدر معين يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله وقيل : هو الزكاة .

(لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) أى : لمن يسأل النّاس الصدقة ولمن يتعفف عن سؤالهم فيُظن أنه غنى فيحرم .

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) : وهو يوم الجزاء ، والمراد من التصديق به : الإتيان بأعمال الطاعات البدنية فوق الاعتقاد القلبي .

(مِنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ) أى : خائفون وجلون مع ما قدموا من عمل صالح .

(فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) : المتجاوزون الحلال إلى الحرام .

(لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) : لا يُخِلُّونَ بشىء مما اؤتمنوا عليه ولا مما أعطوا عليه العهد للوفاء به .

التفسير

١٩ ، ٢٠ ، ٢١ - (إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) :

هذا إخبار من الله - تعالى - عن الإنسان ، وعما هو مجبول عليه من أخلاق ذميمة ، إلا من عصمه الله - سبحانه - ويراد بالإنسان الجنس ، أو الكافر ، أى : شأنه وطبيعته أن يكون سريع الجزع إذا مسه شر وضر أو لحق به ضيق وعنت ، شديد الحرص والمنع إذا صادفه رخاء ويسر[1] .

سئل ابن عباس عن الهلوع ، فقال : هو كما قال الله تعالى : (إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) ، وسأل محمد بن عبد الله بن طاهر ثعلبًا عنه ، فقال : قد فسره الله تعالى ولا يكون تفسير أبين من تفسيره سبحانه ، يعنى قوله تعالى : (إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ...) الآية ، أى : إذا مسه الفقر أو المرض ونحوهما كان مبالغًا فى الجزع مكثرا منه ، لا صبر له على ما نزل به ، يتجرعه حزينًا كئيبًا تكاد تتقطع نفسه ، وينخلع قلبه . قال الراغب : الجزع أبلغ من الحزن ؛ فإن الحزن عام ، والجزع حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده ، ويقطعه منه لقوة أثره فيه حتى صرفه عمَّا عداه .

(وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) أى : كان مبالغًا فى البخل والإمساك ، لا ينفقه فى طاعة ، ولا يعرف فيه حق الله ، أخرج الإمام أحمد بسنده عن عبد العزيز بن الحكم قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ « شَرٌّ ما فِي الرجلِ شُحٌّ هالِع ، وجُبْنٌ خالِع » .

(١) لإيثاره الجزع والمنع وتمكنهما منه جعلا كأنهما أمر خلقى وضرورى غير اختيارى .

٢٢ - (إِلَّا الْمُصَلِّينَ) :

لَمَّا وصف سبحانه فيما سبق كل من أدبر عن الحق وتولى عن الطاعة بما يستحقونه من النعوت القبيحة معللا ذلك بهلعهم وجزعهم . استثنى المصلين المتصفين بالأوصاف الجليلة الآتية التى تنبيء عن كمال تنزههم عن الهلع : من الاستغراق فى طاعة الحق ، والإشفاق على الخلق ، والإيمان بالجزاء ، والخوف من العقوبة ، وكسر الشهوة ، وإيثار الآجل على العاجل فقال عز من قائل مُعَدِّدًا تلك الصفات التى اتصف بها المصلون :

٢٣ - (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ) :

أى : مواظبون مستمرون على أدائها فى وقتها ، لا يغفلون عنها ولا يشتغلون بغيرها ، وقد أخرج ابن حبان عن أبى سلمة قال : حدثتنى عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « خُذُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا » . قالت : فكان أحب الأعمال إلى رسول الله ﷺ مادام عليه وإن قل ، وكان إذا صلى صلاة دام عليها ، وقرأ أبو سلمة : (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ) ، وقيل : دائمون ، أى : لا يلتفتون فيها ، وروى ذلك عن عمران بن حصين وكذا عن عقبة بن عامر .

أخرج ابن المنذر عن أبى الخير أن عقبة قال لهم : من الذين هم على صلاتهم دائمون ؟ قال : قلنا : الذين لا يزالون يصلون . قال : لا ولكن الذين إذا صلوا لم يلتفتوا عن يمين ولا شمال . وإليه ذهب الزجاج .

وقيل : المراد بالدوام السكون والخشوع كقوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ »[1] ، والمراد بالصلاة - على ما أخرج عبد بن حميد عن إبراهيم التَّيْمى - : الصلاة المكتوبة ، وقيل : النافلة ، وقيل : ما أمروا به مطلقًا منها ، على سبيل الوجوب أو الندب وهو الظاهر .

(١) المؤمنون (أول السورة) .

٢٤ ، ٢٥ - (وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ • لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) :

أى : والذين يجعلون فى أموالهم نصيبًا معينا يستوجبونه على أنفسهم تقربا إلى الله ، وإشفاقا على العباد ، وهو ما يوظفه الرجل على نفسه يؤديه فى كل جمعة أو كل شهر مثلًا . كما روى عن الإمام أبى عبد الله - رضى الله تعالى عنه - وقيل : هو الزكاة لأنها مقدرة معلومة ، ورد هذا بأن السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت وبُيِّنَ مقدارها فى المدينة ، وقبل ذلك كانت مفروضة من غير تعيين ، وهذا القدر المعين الذى اختاره المتصدقون ، وجعلوا إخراجه لزاما عليهم يعطى (لِلسَّائِلِ) وهو حق له . قال رسول الله ﷺ فى مسند أحمد : « للسائلِ حقٌّ وإن جاءَ عَلَى فَرَس » (وَالْمَحْرُومِ) يعطى أيضًا ، وهو الذى يتعفف فلا يسأل الناس شيئًا ، وبذلك يخفى أمره فلا يُفطن له ، ويُحسب أنه غنى ، فيحرم ، ولا يتصدق عليه بما هو حق له ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى : « يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ »[1] ، واستعمال المحروم فى المتعفف على سبيل الكناية .

٢٦ - (وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) :

وهو يوم الجزاء والحساب ، والمراد من التصديق به : أن يشغلوا أنفسهم بأداء الأعمال الصالحة طمعًا فى المثوبة الأخروية بحيث يستدل بذلك على تصديقهم الأكيد بيوم الجزاء وحبهم الصادق له ، لأن التصديق القلبى عام لجميع المسلمين ، لا امتياز فيه لأحد منهم على غيره .

٢٧ - (وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ) :

أى : خائفون على أنفسهم أن يمسهم عذاب ربهم مع ما لهم من الأعمال الفاضلة استقصارًا لها واستعظاما لجنابه - عز وجل - كقوله تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ »[2] فهم بذلك قد بلغوا الغاية فى بلوغ أعلى مراتب الخشية ، وأسمى آيات الطاعة ؛ فكان جزاؤهم أن يكونوا من الآمنين يوم الفزع الأكبر .

---

(١) البقرة ، من الآية : ٢٧٣ (٢) المؤمنون ، آية رقم : ٦٠

٢٨ ـ (إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ) :

اعتراض بين الكلام المتصل فى وصف المصلين مؤذن بأنه لاينبغى لأحد أن يأمن مكر الله وعذابه ، وإن كان له فى الطاعة قدم ثابتة ، وفى الإخلاص جهد لايُبَارَى كهؤلاء ، ولذا كان السلف الصالح ـ وهم هم ـ خائفين وجلين حتى قال بعضهم : ياليتنى كنت شجرة تعضد ، وقال آخر : يالَيْتَ أمى لم تلدنى .

٢٩ ، ٣٠ ـ (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) :

أى : أنهم ممسكون لفروجهم غير مرسلين لها على أحد إلَّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم وفيه إيذان بأن شهوتهم قوية دافعة تدعوهم إلى بذل الجهد فى صدها لمنعها من استيفاء مقتضياتها ، وبذلك يتحقق لهم كمال العفة .

والمراد بقوله تعالى : (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ): الإماء المملوكات .

(فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ): تعليل لما يفيده الاستثناء القاضى بعدم حفظ فروجهم عن الزوجات والمملوكات ، أى : فإنهم ليسوا أهلًا للوم والتأنيب على عدم حفظ فروجهم بإرسالها على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم وفق نص الشارع الحكيم .

٣١ ـ (فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) :

أى فمن تجاوز الذى ذكر من القدر المعلوم وهو نكاح أربع من الحرائر ، وما شاء من الإماء ، فقد تعدى حدود ما أحل الله له إلى ما حرمه عليه . قال الطبرى : من التمس لفرجه منكحًا سوى زوجته أو ملك يمينه ففاعلو ذلك هم العادون الذين تعدوا ما أحل الله لهم إلى ما حرمه عليهم ، وهم الملومون . أما الذين لم يقربوا سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم ، وما ملكت أيمانهم من السرارى ، فهم غير ملومين كما أشارت إلى ذلك الآية السابقة .

٣٢ - (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) :

أى : أنهم إذا اؤتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا ، بل كانوا مثالًا كاملًا فى حفظ الأمانة ، ورعاية حقوقها ، والوفاء بالوعد ، والإخلاص فيه ، وبذلك تنزهوا عما اتصف به المنافقون فى الحديث الصحيح : « آيةُ المنافقِ ثلاثٌ : إذا حَدَّث كذبَ ، وإذا وَعَد أخلفَ ، وإذا اؤْتمِنَ خان » وكأنه لكثرة الأمانة جمعت ، ولم يجمع العهد لأنه ليس كالأمانة كثرة ، ويدل على كثرتها ما روى عن الكلبى : كل أحد مؤتمن على ما افترض عليه من العقائد ، والأقوال ، والأحوال ، والأفعال ، ومن الحقوق فى الأموال وحقوق الأهل والعيال ، وسائر الأقارب ، والمملوكين ، والجار ، وسائر المسلمين . وقال السدى : إن حقوق الشرع كلها أمانات قد قبلها المؤتمن ، وضمن أداءها بقبول الإيمان ، ونص غير واحد أن الخيانة فى الأمانة ، وكذا الغدر بالعهد من الكبائر ، وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن أنس قال : ما خَطَبَنا رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم - إلا قال : « لا إيمانَ لمن لا أمانَةَ له ، ولا دينَ لمن لا عَهْدَ له » .

٣٣ - (وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ) :

أى : أنهم محافظون عليها ، لايزيدون فيها ، ولاينقصون عنها ، غير منكرين لها أو لشىء منها ، وإنما يقيمونها على وجهها ، بدون ميل إلى قريب أو شريف ، أو ترجيح لقوى على ضعيف : إظهارًا للصلابة فى الدين ورغبة فى إحياء حقوق المسلمين ، وتعظيما لله - عز وجل - فيما يتعلق بحقوقه - سبحانه - من أنه واحد لاشريك له وأن محمدًا عبده ورسوله ، وخص بعضهم الشهادة بما يتعلق بحقوق العباد ، وذكر أنها مندرجة فى الأمانات إلَّا أنها خصت بالذكر لإبانة فضلها ، وعلو قدرها ، وجمعت لاختلاف الأنواع .

٣٤ - (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) :

أى : يراعون شرائطها ، ويكملون فرائضها ، وسننها ، ومستحباتها ، وذلك باستعارة الحفظ من الضياع للإتمام والتكميل ، والحفظ غير الدوام فى قوله - سبحانه - فيما سبق : (الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ) فلا تكرار .

وفى افتتاح الأوصاف بما يتعلق بالصلاة أولًا وآخرا دلالة على الاعتناء بها ، والتنويه بشأنها وفضلها على سائر الطاعات لأنها معراج المؤمنين ، ومناجاة رب العالمين ، ولذا جعلت قرة عين سيد المرسلين .

٣٥ - (أُولَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ) :

إشارة إلى أن الموصوفين بالأوصاف الكريمة التى تنبئ عن علو أقدارهم عند ربهم ، واستحقاقهم لإكرامه وفضله مكرمون فى جنات النعيم ، وما فى الإشارة من معنى البعد فى قوله تعالى : (أُولَٰٓئِكَ) مع قرب العهد بالمشار إليهم هو للإيذان ببعد منزلتهم فى الفضل ، وقوله تعالى : (فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ) أنهم مستقرون فى جنات لايقادر قدرها ، ولا يدرك شأنها . مكرمون فيها بكل أنواع التكريم .

(فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾)

المفـــردات :

(مُهْطِعِينَ قِبَلَكَ) أى : مسرعين نحوك مادى أعناقهم إليك . مقبلين بأبصارهم عليك وفعله (أهطع) بمعنى مد عنقه ، وصوب رأسه ، ومهطع كمحسن : من ينظر فى ذل وخضوع لا يقلع بصره ، والمادة تدل على السرعة .

(عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ) أى : جماعات فى تفرقة كما قال أبو عبيدة : كل فرقة تعتزى وتنتسب إلى غير من تنتسب له الأخرى ، وهى جمع عزة بمعنى فرقة ، والفرقة من ثلاثة أشخاص أو أربعة .

(كَلَّا) كلمة لردع المشركين عن الطمع فى الجنة .

(بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) أى : مشارق الشمس والكواكب ومغاربها .

(وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) أى : بمغلوبين إن شئنا تبديلهم بخير منهم .

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا) أى : اتركهم للدخول فى باطلهم الذى تعودوا الدخول فيه واقترافه والحديث عنه ، ولا تعبأ بلعبهم فى دنياهم فإنه لايجدى .

(مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً) أى : مسرعين ، والأجداث : جمع جدث وهو القبر ، مثل سبب وأسباب ، وهى لغة تهامة ، ولغة نجد جدف بالفاء .

(إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ) النصب : ما نصب فعبد من دون الله ، وهو عند الكثيرين مفرد ، وقيل : هو جمع نصاب ككتاب ، وقال الأخفش : جمع نَصْب كَرَهْن ورُهن ، والأنصاب جمع جمع ، و (يُوفِضُونَ) : يسرعون ، من الإيفاض ، وقيل : هو مطلق الانطلاق .

(تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) أى : تغشاهم ذلة شديدة تجعلهم فى منتهى الضعف والهوان .

التفسير

٣٦ ، ٣٧ - (فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ) :

كان النبى ﷺ يصلى عند الكعبة ويقرأ القرآن . فكان المشركون يجتمعون حوله حلقاً حلقاً وفرقاً يستمعون ويستهزئون بكلامه - عليه الصلاة والسلام - ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد ﷺ ، فلندخلنها قبلهم ، فنزلت الآيات .

والمعنى : أى دافع دفع هؤلاء الكافرين إلى أن يسيروا نحوك مسرعين مادى أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك ، يحلقون عن يمينك وشمالك حلقاً متعددة ، ويكونون فرقاً شتى كل فرقة تعتزى وتنتسب إلى غير من تعتزى له الأخرى . ينكر الله تعالى على المشركين الذين كانوا فى عهد النبى ﷺ وهم مشاهدون له ولما أرسله الله به من الهدى ، وأيده به من المعجزات الباهرة ، ثم هم مع هذا كله معرضون عنه مبالغون فى تلمس ما يتخذونه هزءا به ، وسخرية منه حينما يرونه يصلى عند الكعبة ويقرأ القرآن قائلين : إن دخل هؤلاء الجنة -كما يقول محمد- فلندخلنها قبلهم ، وقد رد عليهم سبحانه فأبطل زعمهم حيث يقول عز وجل :

٣٨ ، ٣٩ -(أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ) :

إنكار لقولهم وردع لهم عن طمعهم الكاذب فى دخولها بلا إيمان ، لأنا خلقناهم من أجل ما يعلمون ، وهو تكميل النفس بالإيمان والطاعة ، أما من لم يستكملها بذلك ، فهو بمعزل عن أن يتبوأ متبوأ الكاملين ، فمن أين لهم أن يطمعوا فى دخول الجنة ، وهم مكبون على الكفر والفسوق ، وإنكار البعث وهو معلوم لهم باعتبار سماعهم عنه من النبى ﷺ .

وقيل المعنى : إنا خلقناهم من نطفة قذرة لا تناسب عالم القدس كما خلقنا بنى آدم كلهم ، ومن حكمنا ألا يدخل أحد الجنة إلا بالإيمان ، فلِم يطمع أن يدخلها من لا إيمان له ؟ وفيه من الإنكار عليهم والردع لهم ما فيه .

وقيل : الأقرب أنه كلام مستأنف[1] قد سيق تمهيدا لما بعده من بيان قدرته على أن يهلكهم لكفرهم بالبعث والجزاء ، واستهزائهم بالرسول والقرآن ، وادعائهم دخول الجنة بطريق السخرية ، وأن ينشىء بدلهم قوماً آخرين خيراً منهم ، فإن قدرته سبحانه على ما يعلمون من أنه أنشأهم النشأة الأولى حجة واضحة على قدرته على ذلك . كما تفصح عنه فاء الفصيحة فى قوله سبحانه :

(١) وهو قوله :(إِنَّا خَلَقْنَاهُم) .

٤٠ ، ٤١ـ (فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَارِقِ وَٱلْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) :

المعنى : إذا كان الأمر كما ذكرنا من أنه سبحانه أنشأهم إنشاء من النطفة المذرة كما يعلمون ولم يكونوا شيئاً مذكورًا : فلا أقسم[1] برب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها على قدرتنا البالغة على أن نهلكهم حسبما تقتضيه جناياتهم ، ونعيدهم يوم القيامة بأبدان أطوع لله ، وأمثل منهم ؛ وذلك لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق والتأكيد بالقسم لأن الإعادة أهون من البدء كقوله تعالى : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »[2] أى : بالبعث .

أو أنّ « لَا » رد لكلام سبق للمشركين واجهوا به الرسول وأصحابه سخرية منهم ، واستهزاء بهم ، وطمعاً استحوذ عليهم فى دخول الجنة قبلهم ، ثم استؤنف فقيل : (أقسم برب المشارق...) إلخ : أى ، أقسم بأن قدرتنا العظيمة على البعث حقيقة لا شك فيها ، وقد شاهدوا من بالغ قدرتنا ماهو أكبر منه وهو خلق السموات والأرض ، وتسخير ما فيها من المخلوقات كما قال تعالى : « لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ »[3] فحقيق بهم أن يدعوا الجحد والعناد ، ويؤمنوا إيماناً لا مرية فيه ولا ارتياب بأننا قادرون على أن نبدلهم خيرًا منهم ، (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) بمغلوبين إن أردنا ذلك ، لكن إرادتنا المبنية على الحكم البالغة اقتضت تأخير عقوبتهم .

٤٢ ـ (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) :

أى : فدعهم يا محمد غير مكترث بهم وبما يصنعون من تكذيبهم وباطلهم الذى تعودوا اقترافه ولا تعبأ بما يأتون به فى دنياهم من أعمال لا نفع فيها ، ولا خير منها ، وإنما هى لهو ولعب ، واشتغل بما أمرت به ، والأمر فى الآية لتهديد المشركين ووعيدهم (حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) وهو يوم البعث عند النفخة الثانية ، وفى ذلك فسيلقون عاقبة ما عملوا ، ويذوقون وباله ، ويتجرعون أهواله التى لا تنفع معها توبة ولا يجدى عندها ندم

---

(١) على أن (لا) نافية للإقسام . (٢) الأعراف ، من الآية : ٢٩ . (٣) غافر ، من الآية : ٥٧ .

٤٣ ، ٤٤ ـ (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ) :

أى :إن يومهم الذى وقع لهم فيه الوعيد بما يلاقونه من أهوال وشدائد لخوضهم ولعبهم، هو يوم قيامهم من القبور إذا دعاهم الرب ـ جل وعلا ـ إلى موقف الحساب ،فإنهم ينهضون مسرعين يسبق بعضهم بعضاً كما كانوا فى الدنيا يهرولون إلى النصب الَّذِى نصبوه للعبادة من دون الله ، وقد كانوا إذا ما أبصروه (يُوفِضُونَ) أى : يسرعون إليه أيهم يستلمه أول وهذا مروىٌّ عن مجاهد ، ويحيى بن كثير وقتادة والضحاك والربيع بن أنس وابن أبى زيد وغيرهم ، وكان الإسراع إلى المعبودات الباطلة وسائر الطواغيت من عادة المشركين ، وفى تشبيههم عند خروجهم من قبورهم للحساب بما ذكر تهكم بهم ، وتعريض بسخافة عقولهم (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ) .

أى : خاضعة منكسرة لمهانتهم ،ووصفت الأبصار بالخشوع مع أنه وصف الكل ؛ لظهور آثاره فيها (تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) أى : تغشاهم ، وتعم ذواتهم ذلة شديدة وهوان فى مقابل ما استكبروا عنه فى الدنيا من الطاعة وتظاهروا به من المعصية ، وتمادوا فيه من العناد بإنكار البعث والمعاد .

(ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ) أى : ذلك الذى ذكر ما سيقع فيه من الأحوال الهائلة والشدائد المذهلة هو اليوم الذى كان يقع لهم الوعيد به فى الدنيا[1] فكانوا يقابلون هذا الوعيد بالاستهزاء والسخرية والتكذيب ، واليوم يرون عذابهم واقعاً ، وجزاءهم محققاً ، وكل ماهددوا به ماثلا ، وقد عز عليهم النصير ، وامتنع المعين .

---

(١) بقوله تعالى :(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) .

سورة نوح عليه السلام

مكية ، وهى ثمان وعشرون آية

وسميت سورة نوح لذكره فى مفتتحها ومختتمها .

وجه اتصالها بما قبلها :

ووجه اتصالها بما قبلها - على ماقال جلال الدين السيوطى - وأشار إليه غيره بأنه : سبحانه كما قال فى المعارج : (إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ) عقَّبه تعالى بقصة نوح - عليه السلام - المشتملة على إغراقهم عن آخرهم ، فوقعت موقع الاستدلال والاستظهار لتلك الدعوى القاضية باستبدالهم خيرًا منهم .

أهم مقاصد السورة :

بدأت بأمر نوح - عليه السلام - أن يَدعُوَ قومه إلى عبادة الله وأن ينذرهم ويخوفهم من عذابه ، وقد وعدهم المغفرة على استجابتهم ، والتأخير إلى أجلٍ مُسَمًّى ، الآيات من أول السورة إلى قوله تعالى : (يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ، وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) .

ثم ذكرت شكايته من إعراضهم عنه ، وعنادهم له بعد أن أمعن فى شغل جميع أوقاته بدعائهم ونصحهم واستنفد معهم كل وسائل الدعوة جهرية وسرية فلم تزدهم إلا فِرَارًا وإصرارًا (قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَارًا) الآيات . ثم وجهت الأنظار إلى دلائل القدرة فى خلق السموات والكواكب ، وفى خلق الأرض وبسطها وما يتصل بها (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقاً ..) الآيات .

ثم سجلت إصرارهم على عبادة الأصنام حتى استحقوا عذاب الله وكان ذلك بإغراقهم (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ...) الآيات .

وختمت السورة ببيان أن نوحًا - عليه السلام - لما يئس من قبولهم الدعوة دعا عليهم بالهلاكِ والانقراض . (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ...) الآيات . ودعا لنفسه بالمغفرة ولأبويه ولمن دخل بيته مؤمناً وللمؤمنينَ والمؤمِنَاتِ .

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾)

المفردات :

(إِلَىٰ قَوْمِهِ) : هم سكان جزيرة العرب ومن قرب منهم .

(عَذَابٌ أَلِيمٌ) : شديد موجع عاجل ، وهو ما حل بهم من الطوفان أو آجل وهو عذاب النار.

(إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) : منذر موضح من أجل نفعكم من غير أن أسألكم على ذلك أجرا .

(يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ) أى : بعض ذنوبكم التى سبقت فى الجاهلية .

(وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) أى : يمد فى أعماركم إلى الأمد الأقصى الذى قدره الله لكم .

(إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ) أى : ما قدره ـ عز وجل ـ لكم وأنتم على ما أنتم عليه إذا جاء لا يؤخر .

التفسير

١ ـ (إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

نوح ـ عليه السلام ـ اسم أعجمى معرب : معناه بالسريانية ، الساكن، والمشهور أنه ـ عليه السلام ـ ابن لَمْك ـ بفتح اللام وسكون الميم بعدها كاف ـ بن مَتُوشَلَخَ ـ بفتح الميم

وتشديد التاء مضمومة وفتح الشين واللام والخاء ـ بن أخنوخ ، وفيه عن ابن عباس : كان بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ عشرة قرون . بعثه الله لأربعين سنة ، ومكث يدعو قومه ألف سنة إلّا خمسين عامًا ، ومع ذلك لم يؤمنْ به إلّا قليل ، وهو من أولى العزم ، وكان فى زمن شاع فيه الكفر وذاع ، وقد اشتهر قومه بعبادة الأوثان ، وأكثروا من البغى والظلم والعصيان ، وعاش بعد الطوفان ستين عامًا حتى كثر الناس وانتشروا ، وفى التهذيب للنووى ـ رحمه الله تعالى ـ أنه أطول الأنبياء عمرًا ، وقيل : إنه أطول الناس جميعًا عمرًا مطلقًا ، وهو ـ على ما قيل ـ أول من شرعت له الشرائع ، وسنت له السنن ، وأول رسول أنذر على الشرك ، وأهلكت أمته ، ويقول ابن كثير : الحق أن آدم ـ عليه السلام ـ كان رسولًا أرسل إلى زوجته ثم إلى بنيه ، وكان فى شريعته الإنذار على الشرك ، ويقال لنوح : شيخ المرسلين ، لأنه أطولهم عمرًا ، وآدم الثانى .

أرسله الله إلى قومه وهم ـ كما قيل ـ : سكان جزيرة العرب ومن قرب منهم ، لا أهل الأرض كافة ؛ لاختصاص نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعموم البعثة من بين الرسل جميعاً ، والذى كان لنوح ـ عليه السلام ـ بعد قصة الغرق حدث بمحض الاتفاق لعدم وجود أحد على الأرض سوى قومه الناجين معه فى السفينة . وفى إسناد الفعل فى قوله سبحانه : (إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ) إلى ضمير العظمة مع تأكيد الجملة ، مالا يخفى من الاهتمام والاعتناء بإرساله عليه السلام (أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ) أى : بأن أنذرهم وخوفهم عاقبة كفرهم . من الإنذار ، وهو إخبار فيه تخويف وترويع ، وتكون (أن) مصدرية . فإن كانت مفسرة كان المعنى : إنا أرسلنا نوحاً إلى قومِهِ ، أى : قلنا له أمرًا ، أى : أنذر قومك لما فى الإرسال من معنى القول دون حروفه ، فلا محل للجملة من الإعراب . (مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) موجع شديد عاجل وهو ماحل بهم بالطوفان كما قال الكلبى أو آجل وهو عذاب النار كما قال ابن عباس أو المراد خوف قومك ، وحذرهم مما ينزل بهم إن لم يؤمنوا حتى لا يكون لهم عذر أصلا يعتذرون به يوم يؤخذون أخذ عزيز مقتدر .

٢ ، ٣ ، ٤ ـ (قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

قول نوح ـ عليه السلام ـ استئناف مبنى على سؤال نشأ عن حكاية إرساله ـ عليه السلام ـ بالوجه المذكور وهو الإنذار ، فكأنه قيل : ماذا فعل ـ عليه الصلاة والسلام ـ؟ فقيل : قال لهم (يَا قَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) بين النذارة ظاهر الأمر واضحه ، لم أدخر وسعاً فى سبيل نصحكم ، وهدايتكم إلى طريق الرشاد ؛ من أجل نفعكم من غير أن أسالكم على ذلك أجرًا وقوله : (أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ) متعلق بنذير فى قوله سبحانه : (إِنِّى لَكُم نَذِيرٌ مُّبِينٌ) على مصدرية (أن) أو تفسيريتها ، فعلى المصدرية يكون المعنى : إنِّى نذير لكم بعبادة الله وتقواه وإطاعتى إلى ما أدعوكم إليه من الصلاح والفلاح ، وعلى تفسيريتها يكون المعنى : إن نذارتى هى : أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، أى : قولى ، أى : اعبدوا الله وحده واجتنبوا مآثمه ، وأطيعونى فيما دعوتكم إليه ، وأمرتكم به وما نهيتكم عنه من عبادة الأوثان والأصنام .

(يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ) أى : يمح الله عنكم بعض ذنوبكم وهى التى حصلت قبل الإيمان لأن الإيمان يجُبُّ ما قبله كما يرى بعض العلماء ، كما فى قوله تعالى : « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ »[1] وقيل : إن المراد بالبعض المغفور قبل الإيمان ، هو ما يتعلق بحقوق الله فقط دون ما يتعلق بحقوق العباد كالقصاص ونحوه ، أو هى الذنوب العظام التى وعدكم الله عليها الانتقام ـ كما قال ابن كثير ـ وقيل المعنى : يصفح الله لكم عن ذنوبكم ، واختاره ابن جرير على أنَّ (مِنْ) بمعنى (عَنْ) وقد تابت عنها ، أو (من) بيانية بمعنى : يغفر لكم أفعالكم التى هى الذنوب ، كقوله تعالى : « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ »[2] فهى لبيان مبهم وهو أفعالهم .

وللتوفيق بين هذه الآية (يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ) وقوله تعالى : (إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) ونحوها لايبعد أن الله يغفر الذنوب جميعها لقوم ، وبعضها لآخرين ، وقيل : جئ بمن مع الكفرة مطلقاً فى خطابهم دون المؤمنين فى جميع القرآن تفرقة بين الخطابين .

---

(١) الأنفال ، من الآية : ٣٨ (٢) الحج ، من الآية : ٣٠

(وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) المراد به الأمد الأقصى الذى قدره الله بشرط الإيمان والطاعة [١] ، وراء ما قدره الله لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان ، وكونهم لايؤخرون إلى الأمد المسمى إلا بشرط الإيمان والطاعة صريح فى أن لهم أجلا آخر لايجاوزونه وهو ما قدر لهم إن لم يؤمنوا ، وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة ، والبر ، وصلة الرحم تزيد العمر . ذكره ابن كثير ،لما ورد به الحديث :« صِلَةُ الرَّحِمِ تزيدُ فى العُمر» .

(إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) تعليل لما فهم من تعليقه سبحانه التأخير إلى الأجل المسمى على الإيمان ،أى : لأن أجل الله الذى قدره سبحانه لكم على تقدير بقائكم على الكفر إذا جاء وأنتم على حالكم لا يؤخر عن وقته المقدر له . فبادروا إلى الإيمان والطاعة قبل مجيئه حتى لا يتحقق شرطه وهو بقاؤكم على الكفر ، وقيل : المراد بتأخيرهم إلى الأجل المسمى تأخير وقت عذابهم ، وذلك بإمهالهم والتجاوز عنهم فى الدنيا ، فلا يوقع العذاب بهم مدة بقائهم إلى أن يأتيهم العذاب المذكور فى قوله تعالى : (مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) فإنه أجل مؤقت حتماً ، وأما الأجل بمضى العمر ، فهو محدود لا يتقدم ولا يتأخر كما قال تعالى : « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » [٢] . ولو كنتم من أهل العلم لسارعتم لما أمركم به نبيكم من الإيمان والطاعة ليتحقق لكم البقاء إلى أجل مسمى ، ولكنكم لستم من أهله فى شئ ، فلذا لم تسارعوا لما أمرتم به وآثرتم الكفر والضلال ،أو لو كنتم من أهله لعلمتم بأن الأجل لايؤخر لوجاء وقته المقدر له ، ولكنكم جهلتم ذلك فظللتم فى غيكم سائرين .

---

(١) حثالهم على الإيمان بنوح – عليه السلام –وبترك الإمعان فى الكفر والعناد ، قيل : إن الله قضى لهم : إن آمنوا عمرهم ، وإن كفروا أهلكهم .

(٢) الأعراف ، الآية : ٣٤ .

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾).

المفـــردات :

(فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِيٓ إِلَّا فِرَارًا) : تباعدا من الإيمان وإعراضاً عنه .

(جَعَلُوٓا أَصَابِعَهُمْ فِيٓ آذَانِهِمْ) : سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة ، ووضع أناملهم فيها كناية عن ذلك .

(وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ) : بالغوا فى التغطى بها ، واستغشى على وزن استفعل . والصيغة تدل على المبالغة لما فيها من الطلب .

(وَأَصَرُّوا) أى : أكبوا وأقاموا على الكفر والمعاصى ، من الإصرار على الذنب : وهو الامتناع من الإقلاع عنه وأصله من الصَّرة . وهى الشدة .

التفسير

٥ ، ٦ـ (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِيٓ إِلَّا فِرَارًا) :

يخبر الله ـ عز وجل ـ عن عبده ورسوله نوح ـ عليه السلام ـ أنه توجه إليه ـ سبحانه ـ مناجياً وحاكياً له بقصد الشكوى ـ وهو أعلم بحاله ـ مالقى من قومه ، وصبره عليهم ، وماجرى بينه وبينهم من القيل والقال فى تلك المدد الطوال ، بعد ما بذل فى الدعوة غاية المجهود ، وجاوز فى الإنذار كل حد معهود ، وسلك معهم مختلف الحيل بعزم وتصميم فلم يُجْدِ

معهم كل ذلك نفعاً ، ولم يؤت ثمرا ، حكى كل هذا لربه مناجيًا وشاكياً فقال : (رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَارًا) أى : دعوتهم إلى الإيمان والطاعة دعاء متواصلا . شغل ليلى ونهارى من غير فتور ولا توان امتثالا لأمرك (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِى إِلَّا فِرَارًا) أى : هَرَباً منى وبعدا عنى ، وعما نصحتهم به ، ودعوتهم إليه ، وإسناد الزيادة إلى الدعاء لسببيته لها على سبيل المجاز ، كما فى قوله تعالى : « وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً »[١] .

٧ ، ٨ ، ٩ ـ (وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَابِعَهُمْ فِىٓ آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً) :

تتابع الآيات ذكر تمادى هؤلاء الكفرة فى الضلال واندفاعهم فى الإعراض والتكذيب مما جعله ـ عليه السلام ـ يستمر فى حكاية شكواه لربه فيقول : (وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ..) إلخ أى : كلما دعوت قومى إلى الإيمان وللاستجابة إلى ما أدعوهم إليه من ترك الشرك والعصيان لتغفر لهم ذنوبهم ، وتتجاوز عن سيئاتهم ، وتدخلهم يوم الجزاء مدخلا كريماً (جَعَلُوٓا أَصَابِعَهُمْ فِىٓ آذَانِهِمْ) أى : سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة إلى الحق . فجعلهم الأصابع فى الآذان كناية عن انصرافهم عن الحق ، وقد أخبر الله عن كفار قريش أنهم كانوا يصنعون مثل هذا عند استماعهم للقرآن الكريم : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ »[٢] .

ولا مانع من حمل قوله سبحانه : (جَعَلُوٓا أَصَابِعَهُمْ فِىٓ آذَانِهِمْ) على إرادة الحقيقة بسدها بالأصابع . (وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ) بالغوا فى التغطى بها . كأنهم طلبوا منها أن تغشاهم كراهة النظر إليه من فرط نفورهم من الدعوة ، ومقتهم لها ، وقال ابن جريج عن ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم ، وقال سعيد بن جبير والسّدى : غطوا رءوسهم لئلا يسمعوا ما يقول .

---

(١) الأنفال ، من الآية رقم : ٢ .

(٢) فصلت ، آية رقم : ٢٦ .

(وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا) أى : أكبوا على ماهم عليه من الكفر بإصرار والتزام ، وقد صار الإصرار حقيقة عرفية فى الملازمة ، والانهماك فى الأمر . قال الراغب : الإصرار : التعمد فى الذنب ، والتشديد فيه ، والامتناع من الإقلاع عنه ، وقد استكبروا عن اتباع نبيهم ـ عليه السلام ـ استكبارًا عظيماً ، وقيل : استكبروا نوعاً من الاستكبار غير معهود قبلهم ، والاستكبار : طلب الاتصاف بالكبر من غير استحقاق له .

وحاصل المعنى : أن نوحاً ـ عليه السلام ـ كان كلما دعاهم إلى دين الحق ليظفروا بمغفرة ربهم عطّلوا مسامعهم عن سماع الدعوة فجعلوا فيها أصابعهم على الكناية أو على الحقيقة . وبالغوا فى التغطى بثيابهم كراهة النظر إليه ، ولئلا يعرفهم فيدعوهم إلى ترك الكفر الذى أقاموا عليه ، وتمسكوا به ، واستكبروا عن اتباعه ـ عليه السلام ـ والانقياد لدعوته استكباراً عظيماً ليسوا أهلا له .

(ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا) أى : إنى دعوتهم تارة بعد أخرى ومرة عقب غيرها . يعنى أنها دعوات متتابعة ، على وجوه متخالفة ، وأساليب متغايرة ، بعد أن دعاهم فى أوقات متنوعة ، وفى ذلك تعميم لوجوه الدعوة بعد تعميم أوقاتها ، و (ثُمَّ) لتفاوت وجوه الدعوة وأساليبها لا للتراخى الزمنى ، وقوله سبحانه : (ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُم جِهَارًا) يشعر بأن الجهر وقع مسبوقاً بالسر وهو الأليق بمن همّه الاستجابة ؛ لأنه أقرب إليها لما فيه من اللطف بالمدعو عند دعوته به . أى : أنه ـ عليه السلام ـ افتتح الدعوة بالمناصحة فى السر فلما لم يقبلوا ثنّى بالمجاهرة ، فلما لم تؤثر ثلّث بالجمع بين الإسرار والإعلان .

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾)

المفــــردات :

(يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا) : غزيرًا متتابعاً ، وهي من صيغ المبالغة التي يشترك فيها المذكر والمؤنث .

(وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ) : أي حدائق وبساتين .

التفســــير

١٠ ـ (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) :

روى أن رجالا أتوا إلى الحسن ، فشكوا إليه ما نزل بهم ، فقال لكل منهم : استغفر الله ، فقيل له أتاك رجال يشكون ألواناً ، ويسألون أنواعاً ، فأمرتهم كلهم بالاستغفار ، فقال : ما قلت من نفسي شيئاً إنما اعتبرت قول الله ـ عز وجل ـ حكاية عن نبيه نوح ـ عليه السلام ـ أنه قال : (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ) الآية . أي : استغفروه بالتوبة عن الشرك والمعاصي ، لتنعموا بخيري الدنيا والآخرة . وقوله تعالى : (رَبَّكُمْ) تحريكاً لداعي الاستغفار (إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) بمعنى أنه غفار للتائبين دائم المغفرة وكثيرها ، كأنهم تعللوا وقالوا : إن كنا على الحق فكيف نتركه ؟ وإن كنا على الباطل فكيف يقبلنا ويتلطف بنا بعد ما عكفنا على الباطل دهرًا طويلا ؟ كأنه استبعاد منهم ، فأمرهم بما يمحق ما سلف منهم من المعاصي ، ويجلب إليهم المنافع ، وذلك هو الاستغفار الذي وعدهم عليه تحقيق أمور هي أحب إلى نفوسهم ، وأوقع في قلوبهم من الأمور الأخروية لديهم ، وهي الرغبات الدنيوية التي جبلوا على حبها ، والتعلق بها لما فيها من الفوائد العاجلة التي يشير إليها قوله تعالى :

١١ ـ (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا) :

قال قتادة : كانوا أهل حب للدنيا ، فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التي يحبونها ، وقيل : لما كذبوا بعد تكرير الدعوة حبس الله عنهم القطر ، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة وقيل : سبعين سنة ، فوعدهم إن آمنوا أن يرزقهم الله تعالى الخصب ، ويرفع عنهم ما كانوا فيه ، ولا شك أن نزول المطر ـ ولا سيما إذا كان غزيرًا ـ من أعظم النعم التي تتعلق بها نفوسهم

وتهفو إليها قلوبهم فى مواطنهم التى يشيع فيها الجفاف ، وينتشر بها القحط ، وقد استدعاهم بذلك إلى الآخرة ، ويراد من السماء : السحاب أو المطر .

١٢ - (وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا) :

أى : ويزدكم الله مالا وبنين ، وكانوا يحبونهما ، ويعملون على الاستكثار منهما ، فحركوا بما يُفيئه الله عليهم منهما إلى الإيمان ، كما حركوا كذلك بأن يجعل سبحانه لهم فى ديارهم بساتين وحدائق فيها أنواع الثمار التى تحقق لهم كل مناعم الحياة ويجعل لهم أنهارًا جارية أو مطلقة لتحيا بها مزارعهم ، وبساتينهم ، وليجدوا فيها كل منافعهم ، وأعيد الفعل (يَجْعَلْ) مع الأنهار للاعتناء بها ، لما أن لها مدخلا عادياً أو أكثريا فى وجود الجنات ورعاية فى بقائها الذى هو أهم من أصل وجودها ، وترك إعادة (وَيُمْدِدْكُم) مع البنين لأنه لا تكمل المنفعة والسعادة إلا باجتماع كل من الأموال والبنين معاً ؛ لذلك ترك إعادة العامل (يمدِدْكم) بينهما لأنهما كالشيء الواحد . قال البقاعى : المراد بالجنات والأنهار فى الآخرة ، والجمهور على أن ذلك فى الدنيا تحريكاً لهم على الإيمان . وبعد أن دعاهم بالترغيب ، عدل بهم إلى الدعوة بالترهيب فقال :

(مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾)

المفـــردات :

(لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) أى : لا تعتقدون لله عظمة ، على أن الرجاء بمعنى الاعتقاد . والوقار بمعنى العظمة : أو ، لا تخافون لله عظمة . فيكون الرجاء بمعنى الخوف ، قال الأخفش : الرجاء هنا : الخوف ؛ لأن مع الرجاء طرفاً من الخوف : ونقل أيضاً عن ابن عباس كونه بمعنى الخوف.

(وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) : جمع طور ، أى : تارات وكرات ، حيث خلقكم أولا تراباً ثم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم خلقاً آخر .

التفســـير

١٣ ، ١٤ - (مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) :

إنكار لأن يكون لهم سبب ما فى عدم رجائهم لله وقارًا ، أى : عظمة ، بمعنى أى سبب حصل لكم حتى جعلكم غير خائفين عظمة الله .

أو غير معتقدين لله عظمة موجبة لتعظيمه - سبحانه - بالإيمان به والطاعة له ، وقيل : المعنى مالكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم فى دار الثواب ، ويراد على هذا بالوقار التوقير ، وهو التعظيم ، وكونه من الله بمعنى رضاه عنهم وتفضله عليهم بأسمى الجزاء (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) أى : والحال أنكم تعلمون أنه - عز وجل - خلقكم مُدْرجاً لكم فى كرات وأدوار متعاقبة ، وحالات مختلفة . فبدأكم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، وبمثل هذا قال ابن عباس وعكرمة وقتادة وغيرهم ، والإخلال بتوقير مَنْ هذا شأنه فى القدرة القادرة والإحسان العام مع العلم به لا يكاد يصدر من عاقل ، والجملة (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) مقررة لإنكار أى سبب مبرر لما وقع منهم من عدم رجائهم لله وقارًا ، بعد أن تفضل عليهم بالتكوين والإيجاد ، وبكل مقومات حياتهم من نعم وآلاء .

(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقاً) : متطابقة بعضها فوق بعض كالقباب من غير مماسَّة .

(وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً) أى : مصباحاً يستضىء به أهل الدنيا كما يستضىءُ النَّاس بالسراج فى بيوتهم .

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً) : أى كالبساط فى رأى العين ؛ لأن الكرة العظيمة يرى كلٌّ من عليها ما يليه مسطحاً .

(سُبُلاً فِجَاجًا) أى : طرقاً واسعات . والفجاج : جمع فج ، وهو الطريق الواسعة ، وقيل : هو اسم للمسلك بين جبلين .

التفسير

١٥ ، ١٦ ـ (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا ﴿﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) :

بيان لآيات كونية للاستدلال بها على ما يوجب توقير الله وتعظيمه ـ جل شأْنه ـ والمعنى : ألم تشاهدوا أيها القوم عظمة الله ، وكمال قدرته فيما أبدع من آيات كونية ، وتنظروا إليها نظر تفكر واعتبار ، كيف خلق الله العظيم سبع سموات متطابقة من غير مماسَّة ، بعضها فوق بعض ، وهى فى غاية الإحكام والإتقان وإبداع الصنع ، كما قال ـ سبحانه ـ فى سورة الملك « مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ » الآية . (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا) ليزيل ظلمة اللَّيل تمكيناً للنَّاس من أداءِ مهامهم وفق ما تدعو إليه شئون حياتهم . « قال الفخر : القمر فى السماءِ الدنيا وليس فى السموات بأسرها » وإنما قال : فيهن لأنَّها محاطة بالسموات كلها ، فما فيها يكون كأنَّه فى جميعها[1] ، وقدَّر ـ سبحانه القمر ـ منازل وبروجًا وفاوت نوره ، فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يتناقص حتى يستتر ؛ ليدل على مضى الشهور والأعوام كما قال تعالى : « وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ »[2] .

---

(١) أو ، لأن كل واحدة منها شفافة ، فترى كلها كأنها سماء واحدة . فساغ أن يقال : فيهن .

(٢) يونس ، من الآية رقم : ٥ .

(وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) أى : كأنها مصباح مضىء لوجه الأرض وسائر الآفاق كما يستضيئون بالسرج فى بيوتهم ليبصروا فى ضوئها ما يحتاجون إليه . ولما كان نور الشمس أشد وأتم وأكمل فى الانتفاع به من نور القمر عبَّر عنها بالسراج لأنه يضىء بنفسه ، وعبر عن القمر بالنور لأنه يستمد نوره من غيره ، ويؤيد هذا ـ كما قيل ـ ما تقرر فى علم الفلك من أن نور الشمس ذاتى فيها ، ونور القمر عرض مستمد من نورها ، وتلك ولا شك آيات ناطقة بالقدرة البالغة ، والعظمة الكاملة التى تدعو إلى توقير الله وتعظيمه .

١٧ ، ١٨ ـ (وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) :

بعد أن ذكر ـ عز وجل ـ الأدلة الكونية أتبعها بذكر ما فى الأنفس من براهين وآيات ، وفى ذكر هذه الأمور دلالة بينة على عظمة الله ، وكمال قدرته ، والمعنى : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنشأكم من الأرض ، وأخرجكم منها ، فاستعير الإنبات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث والتكوّن من حيث إنه محسوس مشاهد ، وقد أكد (أَنبَتَ) بقوله : (نَبَاتًا) أى : أنشأكم منها إنشاء لاشك فيه ، وأخرجكم من ترابها كما يخرج النبات من خلاله ، وهم وإن لم ينكروا الإنشاء والحدوث ، فقد جعلوا بإنكار البعث كمن أنكر الإنشاء والحدوث ، وفى ذلك إشارة إلى خلق آدم ـ عليه السلام ـ حيث خلق من ترابها ثم جاءت من آدم ذريته

قال المفسرون : لمَّا كان إخراجهم وإنشاؤهم إنما يتم بتناولهم عناصر المواد الغذائية النباتية والحيوانية المستمدة من الأرض ، كانوا مشابهين للنبات الذى ينمو بامتصاص غذائه من الأرض فلذا سمى سبحانه خلقهم وإنشاءهم إنباتًا (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا) أى : فى الأرض بالمواراة فيها إذا متم (وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) محققًا لا ريب فيه عند البعث وكان العطف بثم فى قوله سبحانه : (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا) لما بين الإنشاء والإعادة من الزمن المتراخى الواقع فيه التكليف الذى استحقوا به الجزاء بعد الإعادة ، وكان العطف بالواو دون ثم فى قوله : (وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) مع ما بينهما من الزمان المتراخى ، لأن أحوال البرزخ والآخرة فى حكم شئ واحد ، فهى لاتصالها وتحقق وقوعها لا محالة ، لم يعتبر فيها التراخى فى الزمن لأنها تشبه أن تكون قضية واحدة .

١٩ ، ٢٠ - (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا) :

أى : إنه سبحانه جعل الأرض فسيحة ممتدة كالبساط تتقلبون عليها كما تتقلبون على بطنكم فى بيوتكم ، وليس فى الآية مايدل على أن الأرض ليست كروية كما فى البحر وغيره لأن الكرة العظيمة يرى كلٌّ من عليها ما يليه مبسوطًا (لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجَاجًا) أى : خلقها الله لكم لتستقروا عليها ، وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها ، وأقطارها طرقًا واسعات فى أسفاركم وتنقلكم ، وقيل : هى المسالك بين جبلين : وكل هذا مما ينبههم به نوح - عليه السلام - على قدرة الله وعظمته فى خلق السموات والأرض ، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، وفى إنشائهم من الأرض ، ثم إعادتهم إليها ، وإخراجهم منها بالبعث ؛ لذلك فهو وحده الذى يجب أن يعبد ، ويوحد ، ولا يشرك به أحد حيث إنه لا نظير له ، ولا كفء ، ولا ند ، ولا صاحبة ، ولا ولد ، ولا وزير ، ولا مشير ، بل هو العلى الكبير .

(قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ) : ولَد محركة مفردة ، ووُلْد - بضم الأول وسكون الثانى - قيل : هو مفرد كذلك ، وقيل : هو جمع ولد كأسد وأُسْد .

(مَكْراً كُبَّارًا) : بالغ الغاية فى الكِبر .

(وَقَالُوا لَاتَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ) أى : التزموا عبادتها ولا تتركوها على الإطلاق .

(وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ...) : هى أصنام خمسة من أصنامهم وخصت بالذكر مع أن لهم غيرها لأنها أعظم معبوداتهم وأكبرها .

التفسير

٢١، ٢٢ـ (قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا) :

يقول تعالى مخبرًا عن نوح ـ عليه السلام ـ : إن نوحًا أنهى إلى ربه ـ وهو العليم الذى لايعزب عنه شيء ـ أن قومه عصوه مع أنه سلك معهم فى دعوته إلى الله الأساليب المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى ، ومع كل ذلك لم يتبعوه ، بل خالفوه ، وأسلموا قيادهم لأبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله ، ومُتع بـأموال وأولاد ، وهى فى نفس الأمر استدراج وإمهال وليست لتفضيل وإكرام . لهذا قال مناجيًا ربه وشاكيًا : (رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى) أى : داوموا على عصيانى .

(وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً) أى : استمروا فى إقبال ورغبة على اتباع رؤسائهم الذين أبطرتهم أموالهم وغرتهم أولادهم وصار ذلك سببًا لزيادة خسارهم فى الآخرة زيادة جعلتهم أهلًا لأن يكونوا أسوة وقدوة لأتباعهم فى الخسار ، وفى أنهم استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا الحياة الفانية على الدار الباقية ، وفى وصفهم بما ذكر إشعار بأن الأتباع إنما اتبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد ، لا لما شاهدوا فيهم من نهج قويم يدعو إلى اتباعهم .

(وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا) باتباعهم . قال ابن زيد : أى كبيرًا فى الغاية ، ويراد به احتيالهم فى الدين ، وصدهم الناس عنه وإغراؤهم وتحريضهم على أذِيَّة نوح ـ عليه السلام ـ ولهذا كان (كُبَّارا) أبلغ من (كبير) ، وإذا اعتُبر التنوين فى (مَكْرًا) للتفخيم زاد أمر المبالغة فى مكرهم وفى عطف هذه الجملة على جملة الصلة وهى قوله تعالى : (لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ ...) إشارة إلى أنهم ضموا إلى ضلالهم إضلال الأتباع فى تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى ، وأنهم على شيء نافع . روى أن بعض الأعراب الجفاة سمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية فقال : ما أفصح ربك يا محمد .

٢٣ ، ٢٤ ـ (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۞ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا) :

أى : وقالوا : لا تتركوا عبادة آلهتكم مطلقًا إلى عبادة رب نوح ـ عليه السلام ـ ولا تتركوا عبادة هؤلاء الأصنام المذكورة ، وخصوها بالذكر مع اندراجها فيما سبق من النهى عن ترك عبادة الآلهة جميعًا لأنها كانت أكبر معبوداتهم الباطلة وأعظمها ، وإن كانت متفاوتة فى العظم حسب زعمهم كما يوحى إليه إعادة (لا) مع بعضها وتركها مع بعضها .

أخرج البخارى وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد ، أما وَدّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمذان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى كَلَاع ، وهى أسماء رجال صالحين من قوم نوح ـ عليه السلام ـ فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انْصِبُوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها انصابا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت . . . اهـ : ابن كثير .

وقيل : هى أسماء رجال صالحين كانت بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ ، وقيل : هم من أولاد آدم ، فلما ماتوا قال إبليس لمن بعدهم : لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم وتتبركون بهم ففعلوا . فلما مات أولئك قال لمن بعدهم : إنهم كانوا يعبدونهم ، فعبدوهم .

وذكر المفسرون فى ذلك روايات وقصصا كثيرة ، فمن أرادها فليرجع إليها فى كتب التفسير .

(وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا) أى : أضل هؤلاء الرؤساء خلقًا كثيرًا قبل الذين أوصوْهم بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام ، فهم ليسوا بأول من أضلوهم ، ويشعر بذلك المعنى فى قوله تعالى : (وَقَدْ أَضَلُّوا) والاقتران بعد حيث أشار ذلك إلى أن الإضلال استمر منهم إلى زمن الإخبار بإضلال الطائفة الأخيرة . وقال الحسن : وقد أضلوا ، أى : الأصنام التى اتخذوها آلهة خلقًا كثيرًا من الناس . فهو كقول الخليل – عليه السلام – : « رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ »[1] وعود ضمير العقلاء عليها وهو واو الجماعة فى قول الحسن لتنزيل الأصنام منزلتهم عندهم وفى زعمهم .

(وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا) أى : قال : رب إنهم عصونى .... إلخ ، وقال : (وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا) والغرض الشكاية وإبداء العجز واليأس منهم وطلب النصرة عليهم ، والمراد بالضلال الذى دعا عليهم بزيادته : إما الضلال فى ترويج مكرهم ومصالح دنياهم ، فيكون دعاء عليهم بعدم الاهتداء إلى تيسير أمور أخراهم ، وإما الضلال بمعنى الضياع والهلاك كما فى قوله تعالى : « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ »[2] ، وهو مأخوذ من الضلال فى الطريق لأن من ضل فيها هلك . ووضع الظاهر وهو قوله : (وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ) موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم المفرط ، ولتعليل الدعاء عليهم به .

---

(١) سورة إبراهيم ، من الآية : ٣٦ (٢) سورة القمر ، الآية : ٤٧

(مِمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾)

المفـــردات :

(رَبِّ لَا تَذَرْ) أى : لاتترك من الكافرين .

(دَيَّارًا) : من يسكن دارا ، أو من يدور ويتحرك فى الأرض ذهابًا وإيابًا من الدار ، أو الدوران ، والمراد : لاتترك منهم أحدا ، والدّيار من الأسماء التى لاتستعمل إلّا فى النفى العام يقال : ما بالدار ديار ، أى : ما بها أحد .

(إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) أى : من سيفجر ويكفر ، فوصفهم بما يصيرون إليه لوثوقه بذلك نتيجة لتجربته الطويلة .

(وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا) أى : هلاكًا ، يقال : تبر يتبَر من بابى : قتل وتعب : إذا هلك ، ويعدى بالتضعيف فيقال : تبّره الله : إذا أهلكه .

التفسير

٢٥ - (مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللهِ أَنصَارًا) :

المعنى : إن هؤلاء الكفار بسبب كثرة ذنوبهم وعتوهم ، وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم أُغرقوا بالطوفان (فَأُدْخِلُوا نَارًا) هي نار البرزخ ، ويراد بها عذاب القبر ، أي : انتقلوا من برودة الماء إلى حرارة النار ، ومن مات في ماء أو نارٍ أو أكلته السباع أو الطير مثلًا أصابه ما يصيب المقبور من العذاب أو النعيم ؛ قال الضحاك : كانوا يغرقون من جانب ويحرقون بالنار من جانب ، ولا غرابة في ذلك ؛ فالله يجمع بين الماء والنار كما قال ابن الأنباري والتعقيب ظاهر على أن المراد إدخالهم بعد الإغراق ناراً هي نار البرزخ ، أما إذا أُريد بها نار الآخرة كما قيل : فيكون التعقيب لعدم الاعتداد بما بين الإغراق وإدخال نار جهنم من زمن لاتصاله وتحقق الإدخال . وتنكير النار إما لتعظيمها وتهويلها أو لأنه - عز وجل - أعد لهم نوعًا من العذاب على حسب خطيئاتهم .

(فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللهِ أَنصَارًا) أي : لم يكن لأحد منهم مغيث ولا معين ولا مجير ينقذه من عذاب الله كقوله تعالى : « لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ »[1] وفيه تعريض بأن آلهتهم التي اتخذوها آلهة من دون الله تعالى غير قادرة على نصرهم ، وفي ذلك من التهكم بهم ما فيه .

٢٦ - (وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) :

معطوف على نظيره (قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي) وقوله تعالى : (مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا ...) الآية . اعتراض بين الدعاءين للإيذان من أول الأمر بأن ما أصابهم من الإغراق والإحراق لم يصبهم إلا من أجل خطيئاتهم التي عدها نوح - عليه السلام - وأشار إلى استحقاقهم العذاب لأجلها ، والمعروف أن هذا الدعاء كان قبل هلاكهم .

---

(١) سورة هود ، من الآية : ٤٣

والمعنى : ربِّ لا تترك على الأرض من الكافرين أحدًا يسكن دارًا ، أو لا تترك منهم من يدور ويتحرك على الأرض لأنهم استحقوا الهلاك بما اقترفوا من آثام وبما استمسكوا به من كفر وطغيان ، ويراد بالكافرين قومه الذين دعاهم إلى الإيمان والطاعة فلم يجيبوا .

٢٧ - ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ :

أى : إنك إن تترك أحدا منهم يضلوا عبادك عن طريق الحق ، ولعل المراد بهم من آمن به - عليه السلام - وبإضلالهم إياهم : ردهم إلى الكفر بنوع من الخداع والمكر ، أو المراد بهم من ولد من المؤمنين ، وبإضلالهم إياهم : صدهم عن الإيمان ، أو من ولد من الكافرين ولم يبلغ حد التكليف ، فكانوا يحولون بينهم وبين الإيمان بغرس العداوة والبغض فى قلوبهم لنوح - عليه السلام - وفى بعض الأخبار : أن الرجل منهم كان يأتى بابنه إلى نوح - عليه السلام - ويقول : احذر هذا فإنه كذاب ، وأبى أوصانى بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك . قيل : ومن هنا قال - عليه السلام - : ﴿ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أى : من سيفجر بعمله ويكفر بقلبه ، فوصفهم بما يصيرون إليه من الفجور والكفر لاستحكام علمه بما يكون منهم ، ومن أعقابهم بعد ما جربهم واستقرأ أحوالهم ألف سنة إلَّا خمسين عامًا ، ومثله قوله - عليه السلام - : ﴿ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ ، وقيل : أراد بقوله : ﴿ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أى : من طبع وجُبل على الكفر والفجور ، وقد علم ذلك بوحى كقوله - سبحانه - : « وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ »[1] وكأنَّ قوله : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ ... ﴾ الآية . اعتذار منه - عليه السلام - مما عسى يرد عليه من أن الدعاء عليهم بالاستئصال مع احتمال أن يكون من ذريتهم من يؤمن ، وذلك مما لا يليق بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام .

وعن قتادة ومحمد بن كعب والربيع وغيرهم أنه - عليه السلام - ما دعا عليهم إلَّا بعد أن أخرج الله كل مؤمن من الأصلاب وأعقم أرحام النساء ، وقد استجاب الله دعاءه ، فأهلك

---

(١) سورة هود ، من الآية : ٣٦

جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولده من صلبه الذى اعتزل عن أبيه وقال : (سَآوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ)[1] الآية .

٢٨ - (رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا) :

خص - عليه السلام - والديه أولًا بالدعاء بالمغفرة ، ثم عمم المؤمنين والمؤمنات ؛ لأنهما أحق وأولى نسبًا ودينًا وكانا مؤمنين ، ولولا ذلك لم يجز الدعاء لهما بالمغفرة ، وقيل : أراد بهما آدم وحواء .

(وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا) قال الضحاك : يعنى دخل مسجدى ، وبه قال الجمهور وابن عباس ، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها ، وهو أنه دعا بالمغفرة لمن دخل منزله وهو مؤمن كما قال ابن كثير ، وقيل : المراد بالدعاء لمن دخل سفينته أو شريعته ، وقيد الداخل بكونه مؤمنًا ، لأنه علم أن من دخل مؤمنًا لا يعود إلى الكفر ، وبهذا القيد خرجت امرأته ، وابنه كنعان ، ولكن لم يجزم بخروجه إلَّا بعد ما قيل له : إنه ليس من أهلك . (وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ) من كل أمة إلى يوم القيامة ، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات وهو تعميم بعد تخصيص ،واستغفر ربه - عز وجل - إظهارًا لمزيد الافتقار إليه سبحانه وحبًّا للمستغفر لهم من والديه والمؤمنين . (وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا) قال السدى : إلَّا هلاكًا ، وقال مجاهد : إلَّا خسارًا فى الدنيا والآخرة . قيل : هلك معهم أولادهم أيضًا لكن لا على وجه العقاب لهم ، بل لتشديد عذاب آبائهم وأمهاتهم بهلاك أطفالهم الذين كانوا أعز عليهم من أنفسهم ، وسئل الحسن عن ذلك فقال : قد علم الله براءتهم فأهلكهم بغير عذاب لهم .

وقيل : لم يكن معهم أطفالهم حين غرقوا ؛ لأن الله سبحانه أعقم أرحام نسائهم وأيبس أصلاب آبائهم قبل الطوفان بأربعين أو سبعين عاما ، وقد دعا - عليه السلام - دعوتين : دعوة على الكافرين بالتبار ، ودعوة للمؤمنين بالمغفرة ، وحيث استجيبت له الأُولى فى حق الكفار ، فاستحال ألَّا تستجاب له الثانية فى حق المؤمنين ،وهو سبحانه أكرم الأكرمين .

والله أعلم .

---

(١) سورة هود ، من الآية : ٤٣

٢٥